

[redacted]

عطر الشوك

رنا الصيفي

نوفل

عطر الشوك

رنا الصيفي

نوفل

صدرت عام 2020 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Amy Weiss / Trevillion Images ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **بيبلوس برينتينغ ش.م.ل.**

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-751-1
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-752-8

إليكِ...إليكَ،

نعم أنت،

إلى عينيك، لا بل قلبك الذي يقرأني في هذه اللحظة،
إلى ذاتك التي ستشعر بي بين الحروف، وستشعر
بذاتها في حنايا المعاني.

كان يتكلّم، يزبد ويرغي، وأنا لا أصغي. عيناي مسمّرتان على شجرة الحَوْرِ أمامي. لطّفَ حفيف أوراقها غوغاء صوته. ضيّق حضوره خناقي ووسع المكان. لم أرَ من داعٍ إلى المكوث أطول. نهضتُ. لوّحتُ له بالوداع وأنا أغادر بصمتٍ وسلامٍ لم أدرِ أنّى نزلا بي.

استوقفني ممسكًا بذراعي. لم أستدر. قال:

– لمَ كلّ هذا التهوّر؟ كفّي عن هذا الهذيان!

– لن أكفّ! سأعرّي كلّ شيءٍ مثل ريحٍ خريفيّة!

– من تخالين نفسكِ؟!

– أنا وجعٌ دفين... حرّيةٌ مكبّلة... موسيقا خرساء... فكرٌ سجين...

– فلتبقي كذلك! شأنكِ شأن الجميع!

– أنت خائف، خائف جدًّا لئن تجرفك الحقيقة...

– دعكِ من هذا الجنون!

– وهل للحياة قيمة بلا جنون؟ سأرويهم... لعلّهم، مثلي، إلى النور يخرجون.

احتقرْ دموعَها ما شئت،
حتّى إذا فهمتَها ذات يومٍ،
ستعي أنّ دفقَها لم يكن لأجلكَ،
بل ريًّا لحقيقةٍ طالَ جفافُها.

17 تموز/يوليو 2016

استيقظتْ على شهقتها مُنقَطِعَةَ النَفَس. فتحت عينيها جَزِعةً واعتدلت لتُعيد الهواء إلى رئتيها. رفعت يدها إلى عنقها. أغمضت جفنيها بأسًى، وأسندت رأسها إلى ظهر السرير. تنهّدت حزنًا. تقوّست شفتاها في ارتعاشةٍ، فاضت كتلةٌ من نار في صدرها وانهمرت دموعُها.

مالت بوجعٍ إلى الوسادة، عانقتها وبكت. بكت وهي تئنّ وأعلى جسدها يرتعد لشدّة انتحابها. هدأت بعد دقائق. مسحت وجهها بخشونة بكلتا يديها. ودّتْ أن تقتلعه وتجد لها وجهًا آخر. قذفت بغطاء السرير عنها ونهضت بتثاقُلٍ مُنقّلةً قدميها بين كلّ ما كان قد تبعثر على الأرض. توجّهت إلى الحمّام، ثمّ تراجعت خطوتين. استدارت يمنةً ناحية المرآة. نظرت إلى انعكاسها، إلى عينيها المتورّمتين والخطوط السوداء التي انسالت على وجنتيها الملطّختين بالكحل من بكاء اليوم وأمس. تسمّرت لمنظرها دقيقة، انبرت من ثمّ إلى الحمّام، دفعت بابه بغضب وغسلت وجهها مرّتين بالماء البارد. هي لا تحبّ الماء البارد، لكنّها أرادت أن يلسعها بقسوته لتستردّ نفسها. أعدّت قهوتها وعادت بها إلى السرير. تحقّقت من هاتفها.

لم يعلُ شاشتَه إخطارٌ برسالة كانت تأملها. تسارَعَ وقعُ أقدامٍ صغيرة من آخر الرواق، اعتلت سريرها وارتمت في حضنها. عانقت ابنتيها التوأمين بشدّة وكأنّها لم ترهما منذ أيّام.

قالتا معًا ضاحكتين:

– ماما! أنتِ تؤلميننا!

ابتسمت لهما، وانهالت عليهما بالقُبَل.

سألتها إحداهما:

– ماما؟ أنتِ بخير؟

تردّدت لحظة قبل أن تجيب:

– نعم حبيبتي.

عجيبةٌ هي قدرة الأطفال على استشعار حقيقتنا مهما حاولنا إخفاءها.

استلقت بينهما، احتضنتهما وداعبت شعر كلٍّ منهما. كان تموّج شعرها ولون عينيها الغريب أكثر ما تمنّت أن تورّثه لهما، واستجابت لها الأكوان بولادتهما قبل ستّ سنوات.

رنّ هاتفها. كانت صديقتها لميا. ليس في عادتها أن تتّصل بها في هذا الوقت المبكر. لعلّها أرادت أن تطمئنّ عليها لأنّها غادرت السهرة أمس على عَجَل. لم تُجبها. ستتّصل بها بعد أن تستعدّ لاصطحاب ابنتيها إلى مكانٍ ما لقضاء اليوم.

نظرت إليهما وقالت:

– أتعدانني بشيء؟

هزّتا رأسيهما موافقتين.

– عندما تكبران، اتبعا قلبيكما مهما يكن.

سكتت الأولى وكأنّها تفكّر، وقالت الثانية باستعجال:

لم أفهم شيئًا!

ردّت الأولى ببراءة:

– يعني أن نفعل ما نحبّه... ما يفرحنا فقط!

خَلْفَ كلِّ وجهٍ، قصّة.

مطر. زحمةُ سيرٍ. أبواقُ سيّاراتٍ راكدة. وجوهٌ خلف الزجاج تموّهها قطرات الرذاذ، وجوه جامدة وأخرى متأفّفة، وجوه متأمّلة وأخرى منشرحة، ترنّم شفاهها نَغَمًا يُسكت إيقاعه الزجاج كما يُسكت المطرَ والزحمة والأبواق التي لا تأبه لها الإشارة الحمراء، ولا رجل الأمن، الذي لا يأبه للإشارة، ملوّحًا بذراعيه مللًا كيفما ارتأى لفكّ الازدحام، وهو يجلس جانبيًا على مقعد درّاجته النارية، متوسّطًا خطوط السير من الاتّجاهات الأربعة، واضعًا قدمًا على الأرض وأخرى على حافة الدرّاجة...

أنوار. زينةُ الميلاد. وصبرٌ لا بدّ منه. لا يسعها سوى الانتظار الذي بدا ممتعًا وهي تُحدّق بارتياحٍ غريب منذ ربع ساعة إلى ذاك الملاك العملاق المرتفع عند عمود الإضاءة على بعد كيلومترات أمامها، والذي علّقت نسخة خزفية مصغّرة عنه على شجرة الميلاد في بيتها قبل أسبوع، لكنّها لم تعرف يومًا معنى حمله البوق. التقطت هاتفها وبحثت في الإنترنت «الملاك النافخ في البوق»:

«الملاك جبرائيل، أحد رؤساء الملائكة في الديانات السماوية، رسول السلام وحامل الرحمة والمغفرة ومحقّق الأماني ومانح الفرح. هو ملاك البشارة الذي أرسله الله ليبشّر زكريّا بأنّ زوجته العاقر ستحمل وتلد ابنه يوحنّا المعمدان، وليبشّر العذراء مريم بحلول الروح القدس عليها وبثمرة بطنها الذي سيُدعى ابن الله. وهو ملاك الميلاد الذي ظهر للمجوس وأنار ظلمة دربهم وكان هدايتهم إلى طفل المغارة، وملاك القيامة الذي دحرج الحجر عن قبر المسيح. وهو الروح الأمين بستمئة جناح الذي ظهر على النبيّ محمّد (ص) وأوحى إليه عن الله ما أمره به».

ابتسمت.

اضطرّت إلى التوقّف عن القراءة. ها قد انحلّت الزحمة أخيرًا لدقائق فقط، تدافعت خلالها السيّارات تستعجل الانفراج.

ركود مرّة أخرى. لا ملائكة أمامها الآن، بل ذلك البيت القديم بواجهته التي لطالما حيّرتها كلّما توقّفت عند تقاطع القنطاري والحمرا خلال عودتها من عملها وسط بيروت، قبل التوجّه يسارًا إلى الأشرفية ومنها إلى منزلها في بعبدا.

ماذا خلف تلك الواجهة التي نهشها الزمنُ والعفن، وخرمتها عشرات رصاصات الحرب؟ تلك القناطر القانطة الثلاث وأزهارها الحجرية الناتئة عند رأسها، المتراخية حتى أطرافها، تُجانِب نوافذ مُغبرّة بزجاجها المثلّم بخجل؛ تلك الشرفة وحاجزها الحديدي المتعانق القضبان رغم التوائها الصَدِئ؛ ذاك القرميد الهرمي الذي يرفض الإقرار بتهافته الوشيك؟

ماذا خلف كلّ هذا التراث المَهيب المواجه للبحر أبدًا، الصامد بأَنفة بين عمارتين شاهقتين حديثتَين لا تُشبهانه في شيء؟

لا بُدّ من أنّ المنزل مهجور منذ عقود.

ماذا حلّ يا تُرى بمن تعاقبوا على سكناه؟

ربّما كانت أُسرة عرفت المجدَ والتَرَف. امرأة وزوجها استمتعا عند الشرفة، ذات صباح أو صباحات، بالعناق والقبلات الخاطفة الحرّى، بنسمةٍ بحرية وعبق قهوةٍ تركية وتموّجات المتوسّط الفضّية. هل عرف مجدهما وترفهما ضحكات أطفال، أم شاخا على أمسياتٍ رتيبة تتالت ما بين صفحاتِ كتابٍ وصوتِ فونوغرافٍ ملّ تكرار الموسيقا الكلاسيكية نفسها، وبين أمسياتٍ عرمت بصخب الاحتفال وقهقهات شفاه حمراء وشوارب مشذّبة تعبّ دخان السجائر والنبيذ الفاخر، تتوق إلى الفساتين الضيّقة والنواهد المشدودة، إلى خصورٍ التزمت رصانتها، وأخرى تمايلت بين الأيدي العابرة تختلس مداعبةً طفيفة؟

ربّما كانت أُسرة قطعت فأس الحرب الأهليّة بعض فروعها تعسُّفًا، وأعرضت عن بعضها الآخر، ففصلت جذورها، وفرّقتها كلًّا في صوب، فانقطعت لُحمتها ومعها الصلة بكلّ ما حوته جدران هذا البناء من ذكريات تعرّت من معانيها.

ربّما كانت أُسرة كبيرة انحسرت مع الأعوام إلى رجلٍ عازب لم يعرف الحبُّ إليه سبيلًا، أو أنّه لم يعرف اتّخاذ تلك السبيل. رجلٌ طويل، رشيق، حسن الهندام، مهذّب، لكن متجهّم على الدوام. كان على الأرجح يصرف حياته في العمل معظم الأيّام، وفي المقاهي يوم العطلة صيفًا برفقة صديق أو أكثر، وفي المنزل في الشتاءات العاصفة برفقة جريدة وكوب شاي، يقرأ لمجرّد أن يقرأ، ليصرف ذهنه عن فراغ سقفه الباسق، وشحوب رخامه اللامع، وخُفوت ثريّاته البرونزية، يلبس رداء نومٍ من الصوف لعلّه يُدفئ برودة قلبه. يُرجَّح أنّه مات في

المنزل ولم يعلم أحدٌ بموته إلّا بعد أن حاول جاره الاطمئنان عليه غير مرّة، واشتمّ رائحة عطنة تفوح من الباب. ربّما لم يكن سعيدًا.

وأنتِ، هل أنتِ سعيدة؟

أخرجتها من غيمة خيالاتها طَرقاتٌ ثلاث على غطاء محرّك سيّارتها. كان رجل الأمن يصرخ بها لكي تتحرّك، فقد تحرّك السير.

* * *

أكملت طريقها باتّجاه مركز التسوّق في الأشرفية لصرف بعض الوقت بصحبة لميا وشراء هديّة لزوجها بمناسبة عيد ميلاده.

أدارت الراديو، قلّبت القنوات، وعلت تلك الأغنية التي تحكي عن الحبّ الذي لا يذوي إلّا متى انكفأت الشمس واستوت الجبال وجفّت البحار، عن الحبيبة الأزلية التي لم تهجر قلب حبيبها وروحه رغم البُعد. ابتسمت بنفحةٍ من حنين. إنّها أغنية غدي المفضّلة. لم تلتقِهِ منذ سنين.

وصلت، وتوجّهت مباشرةً إلى متجر الملابس الداخلية الذي سبقتها إليه لميا لشراء طقمٍ جديد، لأنّها تحبّ مفاجأة زوجها عُمَر بين حين وآخر. التقته لميا في كليّة الهندسة حيث درس الهندسة المدنية واختصّت هي بالهندسة الداخلية التي عكست اتّقاد ذهنها وروحها المَرِحة المتجدّدة، وأسلوب لبسها المزركش المُبتَكَر وعبثية شعرها الطويل الكثّ الأجعد كالأفارقة. كانت تصغره بسنة. لم يوفّرا لقاءً إلّا تجادلا فيه وتناقشا بحدّة وتحدٍّ سرعان ما تحوّلا إلى انسجام خالص وحبّ جنوني. تميّزا بمدى إقبالهما على الناس وإقبال الناس عليهما. تزوّجا بعد أربع سنوات من تخرّجهما. أسّسا شركتهما الخاصّة وأمطرتهما السماء بالمشروعات الواحد تلو الآخر لشدّة احترافهما

ونهجهما الإبداعي، حتى أضحيا من المهندسين الأكثر رواجًا في العالم العربي.

قالت ممازِحة وهي تقبّل صديقتها:

– أحسدكِ على هذه الهمّة!

ضحكت لميا وردّت:

– هيّا اشتري شيئًا بدورك! أنا متأكّدة من أنّ فريدًا... بركان لا يخمد!

اكتفت بالابتسام ووافقتها بإيماءة من رأسها.

قالت لميا وهي تقلّب الملابس المثيرة:

– لا أدري إن كان ما نفعله صائبًا. نحيا وكأنّنا لا نزال في العشرين. الغد لا يهمّنا ولا الأمل. نستمتع بكلّ لحظة لنتخطّى حالنا أو لندّعي أنّنا نتخطّاها.

– لكنّكما حاولتما مرارًا ولم توفّرا وسيلة.

– ولم نُفلِح.

– نِعَمكما الأخرى كثيرة، وحجم التبرُّعات والمساعدات التي تقدّمانها سنويًا لا يُقدَّر بثمن.

– بالضبط. نمنح الآخرين سعادة لا نملكها.

– لكن السعادة نسبية يا لميا.

– السعادة تكمن في امتلاك ما ينقصنا، وأنا تنقصني نعمة الأمومة.

غيّرتا موضوع الحديث سريعًا وتوجّهتا إلى الصندوق لتسديد ثمن ما اشترتاه، بعد أن استقرّ رأي لميا على الطقم الأسود، واختارت هي طقمًا خمريًا. تابعتا التسوّق لساعة إضافية، اشترت قميصًا وربطة عنق لفريد، ثمّ غادرت كلٌّ إلى وجهتها.

***

قصدت والديها لاصطحاب ابنتيها، وأسرعت إلى منزلها لئلا يباغتها الوقت قبل عودة زوجها. وصلت، ركنت سيارتها السوداء الرباعية الدفع في الباحة الشاسعة، وترجّلت هي وابنتاها وهنّ يضحكن والأكياس تترامى من أيديهنّ، فيما تسابقن ركضًا على الدرجات الأربع العريضة المُفضية إلى المدخل لئلا يبلّلهن فيض السماء.

كان منزلها فيلا من طابقين بتصميمٍ حديث، تُحيطها الأشجار من كلّ صوب، وتطلّ على العاصمة بواجهاتٍ زجاجية عريضة. أرادتها كذلك لأنّها تحبّ النور. وزّعت في داخلها من الأثاث ما كان جميلًا وكلاسيكيًا لكنّه لا يُشبهها. وكانت الشرفة الرحبة أكثر ما تعشقه فيها. أحبّت شكل منزلها، فالشقق لم تستهوها يومًا بجمودها ونمطيّتها.

سارعن إلى نفخ البالونات وتعليق بعض الزينة هنا وهناك، ثمّ توجّهن إلى المطبخ لإعداد العشاء وقالب حلوى. أحبّت صرف أوقاتٍ مماثلة مع ابنتيها اللتين أصرّتا على معاونتها حتى بات المطبخ ساحة قتالٍ بين طحينٍ وسكّرٍ وبيضٍ وحليب.

لم تعبأ بذلك. يُمكننا دومًا إزالة الفوضى، وإعادة ترتيب أمورنا ورصفها، لكن لا يُمكننا اختلاق السرور.

وصل زوجها على غفلة.

– بابا!

هرعت الفتاتان إليه وعانقتاه.

ضمّهما بشدة مُبتسمًا:

– يا روح بابا... على مهلكما! ها قد وسّختما بذلتي! وما الذي يجري هنا بالضبط!؟

قالتا ضاحكتين:

– أردنا مفاجأتك!

لقد نجحتما فعلًا!

قالها، وهو يُغلق الباب خلفه ويُردف من الردهة:

– مرحبًا حبيبتي.

– أهلًا حبيبي. كيف كانت رحلتك؟

– كالعادة.

توجّه إلى المطبخ الذي كان مفتوحًا على المدخل والصالون وغرفة الجلوس المحاذية له، المترامية الأطراف والشاهقة السقف. طَبَعَ قبلة على خدّ زوجته مُجيلًا نظره في كلّ الاتجاهات من حوله، ونَفَثَ تعليقًا فيما هي منهمكة في إعداد الطعام:

– أرى أنكنّ مشغولات جدًا!

أومأتْ إلى قالب الحلوى في الفرن وعلى ثغرها ابتسامة:

– عودتكَ المبكرة أفسدت كلّ مخطّطاتنا!

– سأستحمّ إذًا ريثما تنتهين.

اعتلى السلالم الخشبية المؤدّية إلى غرف النوم وهو ينزع سترة بذلته وربطة عنقه. نادى المساعِدة التي تعمل لديهم، قذف إليها بالسترة من فوق الحاجز الزجاجي للسلالم، طلب إليها أن تنظّفها، وأن تُسرع في التخلّص من فوضى المطبخ وأغلفة الزينة المتناثرة في أرجاء المنزل.

رُتّبت الفوضى.

مُدّت طاولة العشاء، التُهِمَ الطعام، رُفعت الأطباق والكؤوس، غُسِلَت، جُفِّفت وأودعت أماكنها. أُحضِر القالب المفاجأة، أُضيئت الشموع، علت الأماني إنشادًا، قُدّمت الهدية وقوبِلَت بالشُكر وبقبلة.

هَمَدَ الضجيج.

خُفّفت الأنوار وأُديرت الموسيقا الهادئة، وانسدلت التموّجات فوق لذّة النهدين، وبرقت العينان وفاض الجسد شهوانيةً بالخمري المخرّم، وتمدَّدَ إغواءً يلتهب عطشًا ينتظر أن يرتوي من نارٍ لم تتّقد وفضّلت عليه النوم.

«مَن لا يجرؤ على لمسِ الشوك،
لا يجدر بهِ اشتهاء الورد».

آن برونتي

هي وَرْد، امرأةٌ استثنائيّة في مطلع الأربعينيات، تفوح طيبةً ومودّة، تشعّ رُقيًّا، وتلمع فِطنة.

وارفـةُ الأنوثة هـي، بهيّة، ممشوقة كرمح، مرسومة الملامح كمنحوتة، مكتنزة الشفتين، لها عينان يختزن بريقهما الحزين غموض الحياة، بريقٌ سَحَرَ زوجها وكلّ من عرفتهم قبله.

رفع لها فريد كأسه تحيّةً عندما تلاقى نظرهما ذات مساءٍ عند مشرب الفندق الذي كانت تنزل فيه خلال سفرة عمل لها إلى فرنسا. وكان لابتسامتها الخجولة أن جعلته ينهض من مكانه على الفور، يدنو منها، يعرّف بنفسه، يُثني على جمالها وفستانها المغري رغم حشمته، ويعتذر عن التطفّل عليها بوقاحةٍ اعتبرتها هي لفتة جريئة تحوّلت إلى حديث طويل، انتهى بالتواعد على اللقاء مجدّدًا في بيروت.

راقها تهذيبه وحِنكته. جذبتها وسامته أيضًا: كستنائي الشعر والعينين، بديع التقاسيم، معتدل الطول، نحيف الجسم، يكبرها بثماني سنوات، ويعمل ربّان طائرة.

تواعدا لأشهر قليلة قبل أن يتزوّجا. أدهشتها فصاحة لسانه وغزارة ثقافته ونُبل تعامله معها، لكأنّه خارج من زمن الأمراء والملوك

القدامى. كان كلّما مرّ لاصطحابها في موعد، ينتظرها خارج السيارة ويفتح لها الباب. وكلّما ارتادا المطاعم، يسحب لها الكرسيّ لتجلس، يلتمسها طلب الطعام أولًا وينتظرها لتبدأ بتناوله لكي يفعل بالمِثل. كان يُصغي إليها على الدوام. لم يقاطع حديثها يومًا أو يسرق ضوءها اجتماعيًا. وإلى جانب حُسن صفاته، كان ميسور الحال ومن وسطٍ مرموق. تنقّلت أسرته في صغره ما بين بلدان الخليج العربي التي انتُدِب إليها والده سفيرًا على مدى سنوات، فخالطت العائلة من الناس كبارهم. تُوفّيت والدته إثر سكتة دماغية عندما كان في الثانية عشرة من العمر؛ وإذ استعصى على والده رعايته وأخيه وحيدًا في ظلّ ظروف عمله وتنقّله المستمرّ، اضطرّ مكرهًا إلى وضعهما في مدرسة داخلية عريقة في لبنان، لازمها فريد إلى حين تخرّجه من المرحلة الثانوية. أتمّ دراسته الجامعية في بريطانيا، حاز جنسيّتها، وتدرّج فيها وفي بلدان أوروبية أخرى. ورغم عمله في الخطوط الجوية البريطانية، اتّخذ من لبنان مقرّه الدائم.

تزوّجته عن افتتانٍ واقتناع. رأت فيه الزوج المثالي، الخالي من العيوب، «الأنسب» لها مِن كثير مَن عاشرتهم قبله ولم يستوفوا شروطها الشخصية: منهم من تنافرت طباعه مع طباعها، منهم من لم يرقَ إلى ذكائها، ومنهم من حرّك فيها مشاعر متأجّجة لكن حالَ دون ارتباطها به فرق العمر الكبير أو الحال الاجتماعية أو اختلاف الانتماء الديني وإنْ في بلدٍ مثل لبنان تنادي طوائفه الكثيرة بالتعايش لفظًا فقط. ومنهم من انجذبت جدًّا إليه لكنّ شعورها تجاهه ظلّ مشوّشًا، كشعورها تجاه غدي.

رُزقت بابنتيها التوأمين عبر التلقيح الطبّي بعد خمس سنوات من المحاولات الطبيعية الفاشلة، فأضحت الفتاتان محور عالمها.

كانت متعتها الكبرى إدارتها لصفحة الموضة والتجميل في المجلة الشهرية المعروفة حيث تعمل. تدرّجت فيها عندما كانت تدرس التسويق والإعلان. أُعجب المحرّرون بإبداعها ونظرتها الثاقبة وانكبابها على العمل، فوظفوها بُعَيد تخرّجها. ظلّت ترتقي سلّم المهنة إلى أن شغلت منصبها العالي منذ أربعة عشر عامًا رغم صغر سنّها آنذاك.

أحبّت تلك الصفحة التي حاكت ذاتها، فالتأنّق والتبرّج لا يُخفيان شوائب الوجه والجسد فحسب، بل نُدَبَ الروح أيضًا.

نبتسمُ للصورة وفي قلوبنا يُعشّشُ الأسى.

جالت ورد المطعم بعينيها لتشغل نفسها، فيما فريد منشغل بهاتفه في انتظار وصول شُميّة وأيمن، صديقه المقرّب الذي ارتاد معه المدرسة الداخليّة ذاتها في برمّانا في الثمانينيات.

روّعها تكرّر مشهد واحد على معظم الطاولات. كانت الهواتف إمّا محمولة في الأيادي، وإمّا موضوعة على المستوى نفسه من الأطباق والكؤوس والمناديل وحضور الآخر.

ابتسمت باستهزاء لما خَطَرَ لها: يا لزمن الهواتف هذا الذي رفع عن الطاولة آدابها، وأنزل الأخلاقيّات إلى أدناها، مُسقِطًا من عُرْفِنا أبسط سلوكيّات التخالط في منح الآخر اهتمامنا من دون الالتفات إلى كلّ طنّة تثب من ذاك الجهاز، فتثب فينا الحاجة المُلحّة إلى التحقّق ممّا وصلنا، وتنتشلنا من لذّة الانغماس في مَنْ أمامنا، في محاورته ومتابعة حديثه والإصغاء إليه. نجلس قبالته وكأنّه طيف، ونخرج من جلستنا غير محمَّلين سوى بشهادة سوء سلوك، ووقتٍ صرفناه في تنقيل أعيننا وأيدينا بين شاشة الجهاز وطبقنا.

أإلى هذا الحدّ أمسى تشارُك الطعام تجربة تافهة أفقدتها الهواتف مغزاها، وشتّتت حواسّنا عن طيب ما نأكل واستساغة طعمه وتناغم ألوانه وتمازج نكهاته؟

بربّكم فكّوا أياديكم من وثاقها، ضعوها في حقائبكم، في جيوبكم، لكن لا تضعوها في مصاف الإنسان أمامكم!

عندئذٍ، وصل أيمن وشُميّة. وضع فريد هاتفه على الطاولة لاستقبالهما، وقال لورد وهو يقف إنّه نسي إخبارها بما استجدّ مع شُميّة. نظرت إليها متفاجئة وهي تُحيّيها، وقالت إنّها احتاجت إلى بعض الوقت لكي تتعرّفها بحلّتها الجديدة.

جلسوا. اعتذرت شُميّة على تأخّرهما قائلة إنّ صغيرتها متوعّكة قليلًا واضطرّت إلى ملازمتها حتى نامت. اقترب النادل لأخذ طلبهم بعد وقت. ملأ كؤوسهم بالماء وانسحب.

رفعت ورد هاتفها من حقيبتها، قالت:

– صورة للذكرى! لنا وليس للفايسبوك. ابتسموا!

أعادته من ثمّ إلى حيث كان.

قال أيمن:

– إنّ هذا الفايسبوك لَكارثة. بفضله، احترفنا جميعًا التلصّص بموافقة الآخر المطلقة! نتقفّى يوميّاته بالدقيقة والثانية، ونرصد كلّ تحرّكاته حيث أصبح بإمكاننا فتح ملفٍّ متكامل عن اهتماماته وميوله وأحواله النفسيّة والماديّة والحميميّة حتى، باستثناء وقت دخوله الحمّام الذي يبخل علينا بنشره!

ضحكوا جميعًا، وأضاف فريد:

– والمؤسف تفاعلنا مع هذا التلصّص وكأنّه شأن شخصّي تُسيّره مشاعرنا. فإن كان من نتقفّاه يروقنا، نمدّه بالإعجاب وبالتعليق، وإن

كنّا نبغضه سرًّا، نتلذّذ بقدرتنا على التسرّب إلى حياته والتمحيص في أدقّ ما أُذِن لنا برؤيته.

وصلت الأطباق وقُدّمت إليهم. علّقت سُميّة بعد شُكرها النادل:

– وأكثر ما يؤلمني شخصيًا هو السرقة الفكريّة الهائلة على هذه الشبكة. لم يعد للقلم قيمة ولا لمن أمسك به أيّ اعتبار. فبعد أن يكون قد سَكَبَ فكرَه حروفًا وجدها بمشقة نفس، يأتي أيّ أحد وينسب المكتوب إلى نفسه أو يتشاركه ويتداوله من دون ذكر صاحبه. زِد على ذلك حجم الأخطاء اللغويّة في هذا التداول، التي، وإن بشكل غير مباشر، تشوّه اللغة وتنتقل إلى الأجيال الفتيّة بشكل خطأ. أمسى هذا العالم الافتراضي برمّته مثل سوق عكاظ، أصوات صاخبة مختلطة غير هادفة، وصُوَر يستعرض فيها الناس حياتهم على الملأ.

أردفت ورد وهي تقلّب طعامها لكي يبرد قليلًا:

– أفهمكِ يا سُميّة. هذا مُحبِط لدكتورة في الأدب العربي مثلك. لكن أكثر ما يحبطني هو العَوَز الروحي الذي تفضحه تلك الصور والذي يمّوه إلى حدٍّ بعيد حقيقة حياة من فيها. ننسى غالبًا أنّ الصورة إطارٌ جامد لا يعكس سوى اللحظة التي التُقطت أثناءها وما انتقينا إظهاره في هذه اللحظة من مشاعر أو لغة جسد أو طعام أو مشهد نريد أن نبعث من خلاله إلى الآخر – أو إلى أنفسنا – رسالةً ما. نرى عائلة يبدو أفرادها على وئام لأنّهم اختاروا الابتسام والتعانق في تلك اللقطة، فيما يعلم كثيرون أنّهم في مشاحنات متواصلة، أنّ ليل ذاك الذي جلست زوجته إلى حضنه ليلٌ بارد جدًا، وأنّهما تبادلا الكره قبل التقاط الصورة بثانية. أتساءل كيف كان للتواصل أن يحدث يا تُرى لو كانت المنابر الاجتماعية لا تجيز الصور؟

ردّ أيمن:

– كان سيحافظ على جوهره: وسيلة للتحاور والتناقش وتناقل المعرفة. كان سيبقى خصوصيًا، متواضعًا، بسيطًا، مرتكزًا على الآخر ومركّزًا فيه، خاليًا من المجاملات والحَسَد المبطّن في تعليقات البعض. بات التركيز الآن منصبًّا على عدد «الإعجابات» التي يتلقّاها الفرد. إن كانت كثيرة، اعتُبِرَ تلقائيًا ذا شأن، ويجهد الآخرون لمواكبة قافلة الشعبيّة تلك. فإن لم يوفّقوا في اللحاق بها، نزل بهم الإحباط. وإن وُفِّقوا، انتشوا من هذا البَهرج الافتراضي الذي لا يأتي عليهم بأيّ فائدة سوى ترقيع ثغرات ما في ذواتهم، واستنساخ حياةٍ لطالما أرادوها، فيفرضونها بالقوّة على حياتهم.

فقال فريد:

– لا تنسَ أنّ هذه «الإعجابات» مرتبطة بعدد الأصدقاء والمتابعين. قد تُدهشنا رؤية 500 إعجاب على صورة ما، لكن إن كان متلقّيها يملك خمسة آلاف صديق، لا تعود الخمسمئة ذات أهميّة حسابيًا مقارنةً بمن يملك ألفًا منها. كما أنّ للخوارزمية دورًا في عملية التفاعل هذه، إذ إنّ المحتوى الذي نراه يخضع آليًا لما يُعرف بعمليّة الترشيح. وبناءً على ذلك، لا نتفاعل سوى مع خمسة وعشرين في المئة تقريبًا من الأصدقاء.

أردفت ورد:

– لكلّ هذه الأسباب، أنا لم أعد أصدّق معظم ما أراه وأقرأه في تلك المنابر. أصدّق ما أراه يتحرّك فقط، مثلكما يا سميّة وأيمن وكلّ هذه الطاقة الإيجابيّة التي تشعّ منكما. ها قد أخذنا الحديث ولم يتسنَّ لي أن أبارك لكِ بالحجاب!

طرفت سُميّة بعينها، ابتسمت، شَكَرَتها وقالت إنّها فكرة أيمن، وإنّ الطعام بدأ يبرد.

همسُ الصمتِ أبلغُ الكلام.

– ما هذا الذي نطق به لسانُكِ المَقيت يا ستّ، يا فاضلة؟

قالها أيمن بصوته الأقرب إلى النقيق فور ركوبه السيّارة وانطلاقه عائدًا وسُميّة إلى المنزل بعد العشاء.

– وهل كذبت؟

– كان الأجدر بكِ ألّا تقولي شيئًا!

– لمَ كلّ هذا الغضب؟ أنتَ تعرف عمق إيماني، بحجابٍ أو من دونه، والله أعلم بي.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! والله ستحترقين في جهنّم لكلامكِ هذا!

– الله الذي أعرف ليس همجيًّا.

– أستغفرُ الله!

– نعم، استغفره، فإذا كان إلهك يُلقي بالناس في النار، فسوف تكون أنت أوّل محروقاته.

رنّ هاتفها.

– أهلًا ورد.

– شُميّة، أظنّ أنّ أيمن نسي هاتفه في المطعم. اتّصلوا بنا الآن قائلين إنّهم وجدوا جهازًا على الطاولة حيث جلس.

– شكرًا حبيبتي، سنرجع.

أنهت الاتصال وأشارت على أيمن بالعودة إلى المطعم.

تلمّس جيبه بعصبيّة، استغفر الله من جديد، وعلّق:

– كيف لا أنساه وكنتُ أغلي بسببك!

– لا تلُمني على عجزِكَ عن التحكّم بانفعالاتك وعلى قلّة انتباهك.

– لا تُغيظيني بربّك!

– إنّها الحقيقة. أنت تنسى أغراضك باستمرار، أكنتُ معكَ أم لم أكن. ألا يكفيني عدم التزامك المواعيد وحشري في مواقف محرجة، واختراع الأكاذيب لتبرير تأخُّرنا الدائم؟

– ألا تملّين من الجدال يا امرأة؟

– بلى، خصوصًا إن كان عقيمًا.

– اعفيني إذًا من هذا الكُفر وانكتمي!

– إن كان لا بُدّ من أن تأمر، فلتأمرني بتهذيبٍ على الأقلّ.

– أتخالين نفسك والدتي يا أنتِ؟

– لا. عندي ثلاثة أربّيهم. كلّ ما أريده هو بعض الاحترام.

– أطبقي فمك وإلّا...!

– وإلّا ماذا!؟ كم أنتِ مخدوعة يا ورد! كم أنّ العالم كلّه مخدوع بنا! أين أنتِ لتسمعي أيمن ذا «الطاقة الإيجابيّة»؟ أيمن الجرّاح الشهير المحترم!

– كفاكِ بلاهة! وكُفّي عن هذا النحيب وكأنّكِ على كرسيّ الإعدام!

- كرسيّ الإعدام أرحم! ألا تعي فداحة ما تتفوّه به وتفعله؟ أتودّ أن تكرّر فجور الأسبوع الماضي؟

– كان بسبب لسانك المستفِزّ!

– هذا لا يمنحكَ الحقّ في فعل ما فعلت!

– هذه أمور تحدث بين كلّ الأزواج، لا تُعظّمي الأمر وكأنّني جلّاد!

– لسانُكَ أشدّ سلخًا!

– لا تتوقّفي عند كلماتٍ أتفوّه بها وأنا مغتاظ. مضى على زواجنا سنوات وبتِّ تعرفينني!

– حبّذا لو أعرفك! أنت تتقلّب مع تقلّب عقارب الساعة! وأنت مغتاظ كلّ الوقت!

– بربّك يا سُميّة! أنت تعرفين أنّني أحبّك ولا أتعمّد أفعالي!

– أنتَ لا تُحبّني... أنت تحبّ دكتورة الأدب المتميّزة. الأم المثاليّة. الوجه المدوّر الجميل. المرأة الاجتماعيّة المحبوبة. أنت تحبّ حبّي لك فقط... من يحبّ لا يجرح، وأنت تجرحني كلّ الوقت. لو أمكنك أن تشقّ جلدي وتنظر إلى قلبي، لوجدته مشطّبًا ألف شطبة!

– ويحكِ! كم أنت مظلومة حقًّا!

– «لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا».

– لا تُملي عليّ ما أعرف.

وبما أن الله سميع، فضّلتِ الصمت.

بعد أن استرجعا الهاتف ووصلا إلى المنزل، توجّه أيمن إلى غرفة الجلوس، أدار التلفاز على برنامج حواري سياسي وغفا على الأريكة.

توجّهت هي توًّا إلى غرفتها، ارتدت ملابس النوم وأوت إلى فراشها.

كعادتها، تكوّرت، رفعت ساقيها إلى صدرها ودسّت راحتي يديها بينهما.

وكأغلب لياليها، أخذها النوم مبلّلًا بسَيلِ عينيها.

* * *

تكوّري يا سُميّة، فهذا جُلّ ما تُتقنينه. أنجبي، نعم أنجبي أكثر لعلّه يصطلح مع كلّ ولد.

هنيئًا لكِ الذِلّة، هذا ما تستحقينه! تستحقين اللطمة التي سدّدها إلى ذراعِك، وكوب الماء الذي قذفه في وجهك، والوسائد التي رشقكِ بها الواحدة تلو الواحدة، والشتائم التي أمطركِ بها الأسبوع الماضي لمجرّد أنّكِ لم تضحكي لمُزاحه السَمِج عندما قال لكِ بعد العودة من مطعم الثمار البحرية الفاخر:

«تنعّمي بهذه الرفاهية، لولاي لما عرفتِ رغد العيش، لولاي لما ارتفع شأنكِ، ما كنت لتحلمي بتناول هذه الأنواع الغريبة في منزل أبيكِ!».

إنّه أبوك نفسه الذي يمتدحه أمام الناس ويُعرّف عنه ببروفسور الفيزياء الكبير، مُنوّهًا بمقامه وكَرَمه ونُبله وبأسرتك البيروتية الأصيلة العريقة، ونَسَبك الرفيع.

أذلك لمجرّد أنّك رجوته أن يكفّ عن ترداد هذه النكتة التي سمعتها منه مئات المرّات، أنك قلت له إنّ النكتة المتكرّرة حقارة مقنّعة، وإساءة مبَطّنة، كتلك التي لا ينفكّ يعيدها:

«يُعجبني أداؤكِ في الآونة الأخيرة، يبدو أنّ مَعْشري جعل منكِ سيّدة!».

ولا تنسي سواها التي يُفاخر بإضحاك الناس بها:

«المرأة كالزيتون، لا تحلو إلّا بالرّص».*

«إذا أردتَ امرأتك أن تلين، فعليكَ بحطب التين».*

هيّا اغفري له، قد لا يستعمل الماء في المرّة المقبلة بل الشاي الساخن أو القهوة. قد يختار أن يفدغ رأسك بما تيسّر أمامه، بإناء الأزهار أو المنفضة الكريستالية، أو قد يكتفي بتسديد نعلِ حذائه إلى كرامتك، ليعتذر من ثمّ ويدّعي أنّه لا يتعمّد أفعاله.

يا لحياتكِ البائسة الجائرة المشبّعة بالـهَوان، بالانكسار، بالانسطاح.

انحني... لكي يعتلي كِبَرَك ويكسر شموخك.

هيمي في متاهته، فستتكفّل وحدها بضلالة عقلك.

امتثلي لقِيَمِك، لصراطك المستقيم، تلقّي أسياخ مهانته وامضي وكأنّ نزفًا لم يكن.

اهربي من ذاتك إلى ذاتك، ادفنيها بالبقاء معه خوفًا من أن يُدينك الناس، هكذا أنتِ في مأمن من حجارة نظراتهم وسِياط أحكامهم.

اطمسي شعاعك.

كمّمي صوتك.

ابتري عزّتك تارةً باسم الصفح، تارةً باسم الحب، تارةً باسم طيبة قلبه المزعومة، وتارةً باسم الفرصة الثانية ما بعد الألف.

هنيئًا لكِ الانسحاق يا سُميّة. تعفّري برماد روحك، لعلّك تنبعثين منه يومًا ما.

وكم منّا يعيشُ حياةً مستترة
في ظلال حياته الظاهرة.

في المكتبة، لمحت ورد وجهًا تعرفه. كانت قد فرغت من شراء بعض القرطاسية وكتب المطالعة لابنتيها، وتوجّهت إلى الصندوق لتسديد ثمنها. أمعنت في الوجه البعيد بين المصطفّين الكثر إلى يسارها ينتظرون لكي يسدّدوا. عيد الميلاد يقترب، والمتجر يعجّ بمن اختاروا الكتب هدايا لذويهم. صاحت:

– فِدا!؟

التفت الوجه يمينًا وقد أخذته الدهشة.

– ورد! لا أصدق عينيّ!

خرجتا من سلسلة المصطفّين وتعانقتا باكيتَين.

– ربّي كم اشتقتُ إليكِ يا فِدا!

– وأنا أيضًا! انظري إلى نفسك! كلما كبرتِ، ازددت جمالًا! و... اعذريني على هيئتي.

مرّرت فدا يدها على شعرها، وعدّلت فتحة قميصها كأنّها تستر جسدها. أضافت:

– خرجتُ بسرعةٍ اليوم. تعرفين كيف هي الحياة...

– لا تقلقي! أين تبخّرتِ فجأةً؟ حاولتُ كثيرًا الاتّصال بهاتف منزلك مُذ تركتِ المدرسة التي ارتدناها. خَشِيَ الجميع أن تكوني وقعتِ ضحيّة الحرب، ولم يهدأ لنا بال إلى أن مررتُ بمنزلك ذات مرّة ولم يفتح أحد. طرقتُ باب جارتكم وأبلغتني أنّكم انتقلتم لكن لا أحد يعرف عنوانًا آخر لكم.

– صحيح...

– هل هاجرتِ إذن؟ حتى ولو هاجرت، وددتُ لو أعلمتني، على الأقل لأودّعكِ!

– لا لم أهاجر...

– بات ذنبكِ أقبح إذن!

– لا يهمّ! ها قد التقينا أخيرًا!

– أُقسم إنّني عملتُ عمل التحرّي على مرّ السنوات! بحثتُ عنكِ أخيرًا في الحسابات الاجتماعية، ولم أجد أيَّ حساب باسمك.

اجتماعي؟ سَرَحَ ذهن فِدا لوهلة.

– لا أملك أيّ حسابات اجتماعيّة... أو سواها.

قالتها فدا ممازِحة.

أردفت ورد:

– ما أحوالكِ؟ أخبريني بكلّ شيء!

– الحمد لله، حيّة... وأتمنّى لو أخبرك بكلّ شيء، لكن عليّ الذهاب الآن لأُقلّ ابني من منزل والدتي.

– لا بأس. أعطيني رقمك لأحفظه. سأتّصل بك لنلتقي لاحقًا. سوف تُسرّ لميا كثيرًا. أخيرًا وجدناك!

* * *

بدخولها المنزل، وجدت ورد أنّ فريدًا قد رجع من سفر اليوم. كان متمدّدًا على الأريكة البنيّة الجلدية في غرفة الجلوس، يرتدي ثيابه الرياضية، يطالع كتابًا، وصوت روبرتو ألانيا الصادح في الخلفية يُنشد الفصل الثالث «لا دونّا إيه موبيليه» من أوبرا ريغوليتو لڤيردي.

نادت:

– مساء الخير حبيبي! لن تصدّق من رأيت اليوم!

قالتها مسرورة كطفلة وهي تخلع حذاءها المتعدِّد الألوان بكعبه العالي وتُسنِد جسمها بيدها إلى الكونسول الخشبي المصقول الناتئ النقوش من طراز لويس الخامس عشر.

غصّ منزلها بأثاثٍ مماثل وتحفٍ فنيّة باهظة تبهر العين كان فريد قد اختارها بتأنٍّ، وأصرّ على اقتنائها.

توجّهت نحوه، ألقت بحقيبة يدها على الطاولة الزجاجية المربّعة التي توسّطت غرفة الجلوس، وضعت مفاتيحها في منفضة الليموج، ودنت منه لتقبّله.

حيّاها، استقبل القبلة، خفض نظّارته، رمقها ببصره للحظة ورماه من ثمّ إلى الحقيبة والمفاتيح والحذاء المُلقى على الأرض بعبثيّة تخدش أرستقراطية الكونسول.

حشر رأسه في كتابه من جديد.

كرّرت عليه وهي تجلس حيث قدماه، وتضع ساقيه في حضنها:

– لن تصدّق من رأيت اليوم!

– آه.

– آه؟

لكزته بساقه ضاحكةً.

رفع نظره إليها، ابتسم بزاوية شفتيه، واعتذر عن انشغاله:

– عفوًا، كنت تقولين...؟

– كنت أقول إنّني صادفتُ اليوم صديقة لي اختفى أثرها منذ ثمانية وعشرين عامًا! أتصدّق؟ خلتُ أنّها هاجرت... لا أدري كيف أنّنا لم نلتقِ يومًا كلّ هذا الزمن برغم وجودنا في بلدٍ صغير كلبنان!

– مذهل!

قالها، واندسّ مجدّدًا في الكتاب.

نهضت وهي تهز رأسها بتأفّفٍ مُحبَّب وسألته في طريقها إلى المطبخ إن كان يودّ تناول شيء ما.

– شربتُ عصير الخُضَر بعدما أنهيتُ المشي على الآلة.

– أتعلم في أيِّ شيء أرغب الآن رغبةً جامحة؟

– فيمَ؟

– في شطيرة بطاطس مقليّة!

– من الواضح أنّ سرورك بصديقتكِ أثّر في عقلك!

– لكنّي لا أتناولها إلا نادرًا! سأتّصل بمطعم الوجبات السريعة.

– هنيئًا لكِ الدهن المشبّع والدهن الذي سيتراكم في فخذيكِ لاحقًا.

– بربّك... سأعدّ شطيرة تونة مع السلطة إذًا!

– أفضل. ولا تُكثري من المايونيز.

بوّزت شفتيها، عقدت حاجبيها، وهزّت رأسها بنوعٍ من الخيبة هذه المرّة. بدّلت رأيها:

– ما رأيكَ في تناول السوشي؟ يمكننا أن نخرج بما أنّ الفتاتين ستقضيان الليلة في منزل والديّ.

– إنّه يوم الجمعة.

– وإن يكن؟ لا ضير في بعض التغيير...

– لا أرغب في الخروج. أنا أقرأ. الطقس ماطر وأشعر ببعض التعب.

كما تشاء...

فتحت البرّاد، أجالت فيه نظرها وهي تُسند قبضتيها إلى خصرها، وقرّرت بعد دقيقة من التأمّل تناول قطعتين من الجبن المعتّق وبضع حبّات من الجوز.

دخلت غرفتها. استحمّت. دهنت كامل جسمها بالمرطّب. ارتدت قميص النوم الحريري. تمدّدت على سريرها وتصفّحت المستجدّات في بعض حساباتها الاجتماعية.

فايسبوك:

صُوَر.

صور الأصدقاء في البيت، في المطعم، في الشارع، في العمل، في السماء وعلى الأرض.

صور أولادهم وآخر ما جاؤوا به من حركات ظريفة وغير ظريفة.

نبأ مروّع: تناوبوا على اغتصابها وقطّعوها ورموا بأشلائها في مستودع للنفايات.

لا تدع هموم يومك تسرق هناء ليلك! مساؤكم دفء وراحة!

الأعشاب وفوائدها: خلطة سحريّة لإزالة الدهون في ثلاثة أيّام فقط! اضغط على الرابط الآن!

صُوَر.

صور الأصدقاء في أحدث أسفارهم الخالية من أيّ مَعْلَم ثقافي أو أثري.

صور احتفالات وأعياد ومناسبات وجنائز ومقامات دينية.

مهمّ جدًا انشروه لتعمّ الفائدة: البيض الاصطناعي آخر فضائح الصين!

فيديو مرعب: أطلقوا النار عليه في وضح النهار، والموضوع برسم الأجهزة الأمنيّة.

شاهد المشاهير في أطرف المواقف المُحرِجة!

صُوَر. صُوَر. صُوَر... تستعرض الأجساد والأزياء والساعات والنظارات الشمسيّة والحالات النفسية، بلقطة واحدة أُخِذَتْ في مكان واحد من مختلف الزوايا وبشتّى الوضعيّات من جلوس، ووقوف، وانحناء، وانبطاح وانفلاش.

إنستغرام:

مين عبالو؟ أطيب ترويقة مع أحلى عالم وأحلى منظر!!! #سفر_بسط_فرفشة.

أبو العبد قرّر يترشّح على رئاسة الجمهورية، ولمّا راح على وزارة الداخلية ليقدّم طلب الترشيح، قلّو الضابط: شو إنتَ مجنون؟ فقلّو أبو العبد: ليش هيدا شرط ضروري؟* #نكتة_اليوم #إضحك_تضحك_لك_الدنيا.

أزيلي الشوائب مع غسول تفتيح الوجه الجديد من إنتاجنا! #مئة_في_المئة_طبيعي.

وصفة سهلة وسريعة لإعداد الكيك بالشوكولا. #وداعًا_للريجيم #ألذ_المأكولات #الحياة_قصيرة_استمتع_بما_تحبّ.

شكرًا أحبّائي! أربعة ملايين متابع! أنا هنا بفضل ربّي، وبفضلكم! #فاشونيستا_العالم_العربي.

حِكَم وعِبَر: إذا صَلُحَ القائد، فمن يجرؤ على الفساد؟* #كونفوشيوس #حاكمون_فاسدون #الحق_مش_عليهم_الحق_على_الشعب_الغنم.

نحن لا نُشترى ولا نُباع! #نحن_هنا.

وزير بحجم الوطن! مش عاجبك؟ دقّ راسك! #الحكم_الصامد.

نعم لنهجكم! باقون على خطّكم! وتبقون #خط_أحمر.

ملك الرومنسية في حفلة ليلة رأس السنة، التذكرة للشخص الواحد تبدأ من 350 د.أ. #رأس_السنة_2015–2016

ملّت. ساعة من التصفّح لم تأتِ عليها بفائدة واحدة باستثناء وصفة الكيك بالشوكولا. أمّا الباقي، فأخبار متكرّرة، سياسيّون إقطاعيّون بامتياز، شعوب مخدَّرة بإرادتها، ونَهَمٌ مَرَضيّ لشدّ الانتباه.

وضعت هاتفها على المنضدة إلى جانبها، أطفأت النور بآلة التحكّم عن بعد واستعدّت للنوم.

دخل فريد الغرفة. خلع ملابسه وتوجّه إلى الحمام ليغتسل.

عجزت عن النوم بسبب قرقرة الماء وصوت المجفّف، فقرّرت أن تراجع بعض خطط التسويق التي أعدّتها هذا الأسبوع لمنتجات ربيع عام 2016 من مستحضرات تجميل وعناية بالوجه. اطّلعت على نماذج التصميم الفنّية المقترحة والنصوص الترويجية المرافقة لها ووضعت ملاحظاتها عليها.

خرج فريد بعد خمسٍ وأربعين دقيقة، واستلقى إلى جانبها. وضعت عملها جانبًا.

اقتربت منه بغُنجها الفطري، قبّلت وجنته مُعلِّقة على طيب رائحته، أمسكت بذراعه ولفّت بها نفسها.

أرخى يده عند خصرها.

أسندت رأسها إلى صدره، ثم دسّت يدها تحت قميصه وحرّكتها بتمهّل على امتداد وسطه. رفعت ساقها إلى فراغ فخذيه، قبّلت شفتيه وأزلقت يدها إلى قضيبه وهي تلاعب رقبته بلسانها.

أدار وجهه ناحيتها، طبع قبلة سريعة على شفتيها، أمسك معصمها، رفع يدها إلى صدره وشدّ عليها.

قال بابتسامة، مُغمَض العينين:

– أشعر بالنعاس.

أحسّت بكتلةٍ من نار تضيّق عليها الخِناق.

تمتمت:

– لا بأس...

ربّتت صدره برقّة، أدارت له ظهرها، ابتلعت دمعة كانت على وشك أن تسيل، وأغمضت عينيها لعلّها بالنوم تُسكت صِياح أفكارها المتناحرة.

لكنّها لم تُفلح.

لماذا بَهتت حماسته تجاهها؟

هي لا تزال جميلة، بل أجمل، وتعتني بنفسها على الدوام وتحيطه بالاهتمام.

ألأنّها باتت في الجَيب؟ ألأنه حذّرها بعد زواجهما بأنّه ليس من الرومنسيين الذين يتذلّلون للحبّ، وأنّ الحبّ في نظره فعلٌ تدريجي يتطوّر مع الوقت؟

لكنّها لم تتوقّع يومًا أن يكتب لها الأشعار أو ينثر الورد على سريرها أو يُسمعها كلام الحبّ كلّ لحظة. كلّ ما أرادته أن تجيش عواطفه نحوها قليلًا.

لـمَ بات يشيح عنها حتى بعينيه؟

تأمّلت في نسيج حياتها المخملي معه، في وجودهما مُتجانبَين، لكن متباعدَين تباعُد القطب عن الآخر.

لم تكن كثيرةَ المطالب، أرادت ببساطة تلوين ذاك النسيج بقطرةِ عشقٍ، بنثرةِ عفوية، ببعض النغم لتليين رخامه، وكان نداؤها صرخة تتردّد في وادٍ معزول.

كانت تخفّف عن ذاتها باستنباط الشروح، كأن تلوم نفسها على خوض هذا الزواج بسرعة، أو تبتكر له كلّ أشكال التبريرات، تمامًا كمن يُخفق في إعداد وصفة جديدة، فيضع الطعام في صحنٍ خزفي فاخر، يزيّن حواشيه، يُقدّمه أفضل تقديم، لكنّ طعمه يبقى كما هو: بلا نكهة.

كانت تقنع نفسها بأنّ الناس ضروب، وعلينا تقبُّل شريكنا كما هو عليه، بأنّ معظم الأزواج هكذا، وأنّ كلّ شيء بخير!

إنّها لَأشدّ الأمراض خُبثًا،
فهي إبادةٌ جماعيّة لا يَسْلَم منها
الضحايا ولا الجُناة.

ذات سبتٍ، دعت وَرْد صديقاتها بشرى وآية وغَـزَل إلى الفطور في منزلها. حافظن على صداقتهنّ منذ الدراسة في الجامعة حيث تعارفن في حصّة الموسيقا الاختيارية.

وصلت بشرى بعد الأُخريَين بأناقتها المعهودة التي غلب عليها الأسود. ارتـدت حـذاءً عالي الكعب وتنّورة ضيّقة تصل إلى ركبتيها تهدَّلَ فوقها قميصٌ بنقشة جلد النمر، وعلّقت بكوعها حقيبةَ يدٍ جلدية ضخمة.

كانت الحُسن متجسّدًا لتناسق قوامها وبشرتها السَنيّة، وشعرها الأسـود الكثيف الـذي موّجت أطرافه، وأحمر الشفاه الفاتح بلون البشرة الذي أبرز كحل جفنيها الداكن وعينيها العسليّتين الكبيرتين.

أطلقت لها الأخريات الصفير وكلمات الإطراء، فراحت تتبختر على طول الردهة مُقلِّدةً عارضات الأزياء في مشيتهنّ. ردّت سترتها الجلدية القصيرة عن كتفيها، استدارت حول نفسها، خلعت السترة ورمتها ضاحكةً إلى صديقاتها. هرعن إليها ورحّبن بها بودّ وعناق.

كانت طرافتها تسبقها أينما حلّت: مهذارة، نقيّة القلب، ذكيّة، كريمة الطينة، وعزباء. وكانت لصفاتها هذه يدٌ في ما جرى لها قبل

بضع سنوات أثناء عملها في مصرف مهمّ بعد تحصيلها شهادة في الشؤون المصرفيّة والماليّة لم تتناغم معها يومًا. فما كان منها إلّا أن تركت وظيفتها التي شغلتها لأربعة أعوام وأسّست عملها الخاصّ. افتتحت صالونًا نسائيًا فاخرًا للتبرّج وتصفيف الشعر وتقليم الأظافر والتدليك. وظّفت أفضل العاملات والعاملين في هذا المجال واهتمّت هي بالإدارة والشقّ المالي. أحبّها الزبائن والموظّفون، وكَبُرَ عملها وازدهر أضعاف ما حَلَمت به.

طفحت مائدة الفطور بملذّات كثيرة طيّبتها وفرةٌ من الأحاديث والنِكات وخفّة بشرى العفوية:

– الله ما أعذب الجلسة من دون رجال! واللهِ لا يأتينا منهم سوى الهمّ والغمّ!

همدت الأخريات وانطفأت ملامحهنّ.

استغربت بشرى ممازِحة:

– ماذا حدث لكُنّ فجأة؟ هل مات أحدٌ؟

أطلقنَ جميعًا ضحكة مدوّية بمن فيهنّ هي، وتابعت:

– صدقًا! كلّ امرأة تأتي إلى صالوني تتذمّر من زوجها أو خطيبها أو حبيبها، باستثناء من لها عشيق طبعًا. وتتذمّر من المصفّف الذي أخطأ في تقدير درجة الصبغة التي تناسب شعرها فأفسده، ومن صعوبة الاختيار بين تركيا واليونان وفرنسا لقضاء إجازة الصيف المقبلة، ومن الأيّام النادرة التي تطهو فيها عندما لا يصلها الطعام جاهزًا من والدتها أو حماتها. وتشكو من مشاغل البيت التي تتولّاها العاملة المنزلية أساسًا، ومن الأولاد الذين لا تلازمهم سوى بضع ساعاتٍ بعد المدرسة، ومن المسؤولية التي ترافقهم وشقائهم وهمّ

أنشطتهم وتدريسهم، وتختم أتراحها ومآسيها بالقول إنّها محظوظة وإنّ الأولاد أحلى ما في الدنيا. واللهِ لم أعد أفهم!

قالت وَرْد ضاحكة:

– فليتذمّرن، إنّها موضة العصر، لربّما ساعدهن ذلك على ملء فراغٍ ما... والآن دعكِ منهنّ، حدّثينا عنكِ! أنفرحُ بكِ قريبًا؟

قذفت بشرى الهواء بيدها، وقطّبت حاجبيها:

– أنتنّ أدرى بتجربتي. الأقفاص لا تليق بي. حرّة سأظلّ، أغطّ بين يديْ – أقصد رِجلَيْ – من يروقني وساعة يحلو لي. هكذا لا أقلق بشأنه ولا يهمّني مراعاة مزاجه ورغباته وتطلّباته المستمرّة! ما جدوى الزواج أساسًا؟ إن كانت تلك الدقائق المعدودة من النشوة، فأنا أحصل عليها حتى من دون رَجُل، وإن كان الأولاد، فشقيقاتي قُمنَ بالواجب!

لم تملك الأُخريات أنفسهنّ من الضحك الذي أعقبته آية برقّتها المألوفة:

– لكن من الجميل أن يكون لنا شريكٌ يؤنسُنا، يقف إلى جانبنا في آخرتنا أو مرضنا أو ساعة حاجتنا إليه.

– ومن يضمن أن أموت بعده أو أن يكون أنيسًا ومُراعيًا بعد الزواج؟ معظم الرجال أنانيون وآخرتي مكفولة. تعلمنَ أنّني أتبرّع دوريًا لأهمّ دور العجزة في البلد، ومتى خَرِفتُ، سيحضنونني بكلّ تأكيد، ليس محبّةً بي طبعًا، بل بمالي. والآن اسمعن اسمعن هذا الخبر! الطبيب في بنايتي يخون زوجته!

فغرت أفواه صديقاتها وحملقت أعينهنّ.

تابعت، وهي تبتلع قضمة كرواسان كبيرة ورشفة قهوة:

– ولو تعلمنَ من المحظوظة!

سألت غَزَل مبتسمة ملء فمها:

– من!؟

- زوجة الناطور!

تحقّقت آية مذهولة:

- وكيف تأكّدتِ؟

- لستُ أنا. إنّها جارتي التي تسكن في الشقّة المقابلة له. كنت أزورها يومًا وإذا بها تقفز فجأة ناحية الباب وتُلصق عينها في ثقبه بعد أن سمعت هدير المصعد يتوقّف عند طابقهما. رسمت ابتسامة ماكرة على شفتيها وهزّت رأسها ساخرة. أخبرتني لاحقًا أنّها واجهته ذات يوم على طريقتها. تذرّع بأنّ زوجة الناطور الحسناء الشابّة تُساعده على تدبير المنزل في غياب زوجته وأولاده لإقامتهم المؤقّتة في الولايات المتّحدة الأميركيّة إلى حين حصولهم على الجنسيّة الأميركيّة.

- ولكن يجوز أنّها تعمل حقًّا على تنظيف المنزل.

- كم أنتِ بريئة يا آية! أيُّ منزل يُنظّف في غضون ساعة؟ كما أنّ جميع سكّان البناية يعرفون العاملة الأجنبية التي تنظّف منزله فعليًا مرّة في الأسبوع... أمّا زوجة المليونير الذي تعرفنه! فحدّثْنَ ولا حرج!

ردّت ورد:

- هذه أيضًا، يخونـــ...

قاطعتها بشرى وهي تقهقه:

- هيَ حبيبتي! على عينك يا تاجر! تتصوّر مع مدرّبها الشخصي في النادي الرياضي وتنشر صورهما على الإنستغرام مع تعليق «Best trainer in the whole world». الواضح أنّه يدرّب مواضع محدّدة في جسمها!

انقلبن على ظهورهن لشدّة الضحك، واستجوبتها آية باستهجان:

- وكيف عرفتِ؟!

صديقتي روّاد النادي نفسه. كانت تراهما يختفيان فجأة من الصالة، فاعتراها الفضول ذات مرّة ولحقت بهما. تبيّن أنّ الحمّام كان كافيًا لتأدية المطلوب... الحمّام!

حلّ صمتٌ وجيز كسرته ورد:

– إنّه العشق يا بشرى... معه لا يعود للمكان أهميّة، لا لضيقه أو اتّساعه أو أُبّهته أو تواضعه أو حتى وجوده. هو يمحو هويّاتَنا ويفكّك أسماءنا وألقابنا ومناصبنا ومقاماتنا، يجرّدنا من مبادئنا وقناعاتنا، يُعيدنا إلى حالتنا الأولى، يحملنا إلى بُعدٍ آخر، إلى حيّزٍ شفّاف لا يشغله سوى جسدين يستميتان للتحادث من دون كلام، لتطارح لذّة الانصهار، لإشباع مجون الاشتياق...

– الله يا ورد الله! لو كنتُ أؤمن بانتقال الأرواح، لاعتقدتُ أنّ روح مولانا الرومي تقمّصتكِ! أتخالين أنّ الجميع يقرأون العشق في الكتاب نفسه؟ كثيرون هم الذين لا يفقهون حرفًا من هذه المعاني. أين العشق في سلوك ابن الزعيم الكبير ذاك؟ زوجته تُزان بالذهب ولم يدع مومسًا إلّا ترك بصمته عليها!

علّقت آية على سبيل الاحتمال:

– ربّما دفعتهم إلى ذلك أسباب وجيهة.

– بالطبع حبيبتي! «كلّ يوم مجدّرة»؟

أخذ الضحك منهنّ كلّ مأخذ إلى درجة أنّهنّ كِدنَ يختنقن بما ملأ أفواههنّ.

قالت غَزَل، وهي تمسح دموع ضحكتها:

– ماذا لو كان أحد الشريكين يعاني من البرود أو القصور الجنسي؟ ماذا لو كان الإهمال من أحدهما هو السبب، أو فتور علاقتهما ووجود تنافر بينهما؟ كلّها احتمالات واردة للخيانة.

- الأجدر إذن بكلّ أطبّاء الجنس وعلماء النفس أن يعتزلوا المهنة! كلّ ما ذكرتِ أسباب عضوية ونفسية يمكنهم حلّها، لكنّ نكرانها وعدم اللجوء إلى الاستشارة هو المشكلة. وما نفع رجل وامرأة لا يتبادلان سوى النفور؟ فليتفاهما أو لينفصلا.

أردفت ورد:

- حبّذا لو كان السبب ما ذكرتِ يا غَزَل، الرجال يعبثون على حدّ قولهم لحاجتهم البيولوجية إلى التعدّدية، ويبرّرون فعلتهم بشيوع هذه الحالة بين تسعين في المئة من الزيجات بحسب ما يزعمون!

استنكرت بشرى بفكاهة وهي تبسط كفّيها وترفع رأسها إلى السماء:

- رَحِمَكَ الله يا جدّي! أين كنتَ من حاجتك البيولوجية تلك؟ هذا مجرّد تذاكٍ، مبرّرات واهية بالية! هذه الحاجة متوقّدة لدى النساء بالقَدْر نفسه كما تعلمنَ. وأين نحن من الأقلّية المُخلصة؟ وجودها يعني أنّ الخيار متاحٌ لكي يفعل الرجل الصواب، لكنّ بعض الرجال يتذرّعون بكلّ الذرائع الممكنة وصولًا إلى ما يخدم مرادهم. وهنا الفرق بين الخائن والمخلص: الأوّل لا يزال بدائيًا، والثاني نشأ وتطوّر...

ضحكن من جديد، وتدخّلت آية:

- غالبًا ما يعتبر الرجل فعلته تلك نزوة عابرة.

- أيّ نزوة بالضبط: تلك التي لا يتقصّد فعلها كلّما خرج للسهر بصحبة أصدقائه وأوقعته امرأة ما في شِباكها رغمًا عنه، أم تلك التي يحلّلها لنفسه في أسفاره المتكرّرة بداعي العمل، أم تلك التي يتوجّه فيها بملء إرادته إلى المومسات عن سابق تصوّر وتصميم؟ النزوة

ورقة تين يغطّي بها الرجل عجزه عن الالتزام ليتمكّن من إبقاء الكرة في مرماه متى افتضح أمره.

– يُقال كذلك إنّ من الرجال مَن يملك رغبات معيبة يخشى مصارحة زوجته بها، فيلجأ إلى شرائها بالمال.

– بالطبع! لقد سدّد ثمن السلعة وله الحقّ في استخدامها كما يشاء! ولا أفهم أمر تلك الرغبات المعيبة، إن كانت كذلك، فلمَ يلجأ إلى إشباعها أساسًا؟ أم هو يرى في المومس امرأة ناقصة، جارية مشتراة ذات وظيفة محدّدة؟

– هي تؤدّي عملًا له شروطه بغضّ النظر عن رأي الرجل فيها.

– لكنّ بتلقّيها المال والتزامها الشروط، إخضاعًا غير مباشر لها، فوقيّةً، تسلّطًا يتلذّذ به الرجل ليغذّي ما فيه من نرجسيّة وعِلل متأصّلة زرعتها فيه تربية ذكورية خطأ.

– لا أعتقد أنّه السبب الأبرز لانجذاب الرجال إلى المومسات.

– صحيح. المومس محترفة تُتقن مدّ الرجل بدفء كاذب وراحة ممنهجة بما يضمن عودته، فيرتاح إليها وتتحوّل فجأةً إلى كرسيّ اعتراف يروي لها كلّ أسراره الزوجية ويشكو لها التزامات الزواج الخانقة وحاجته إلى متنفّس بين أحضانها، أو يبوح لها بتهرّبه من معاشرة زوجته أو حبيبته لأنّها تتوقّع منه الكثير غير أنّ قضيبه الصغير لا يسعفه، وكبرياؤه تمنعه من مصارحتها بمحدودية قدراته. وقد يكون شبق شريكته مصدر إحباط جنسي له، يُسيء إلى ذكورته الهامدة التي تحول دون إمتاعها...

عقّبت غزل إذ ذاك بشبه قناعة:

– بالطبع سيكون الزواج خانقًا متى انتفى فيه الحبّ! كثيرون يعرفون متأخرين حبّ حياتهم ويلجأون إلى الخيانة لأنّها حلّهم الوحيد

في ظلّ زواج دخلوه بعقلهم على أساس مصالح واستنسابات معيّنة، وبات الخروج منه عسيرًا لأنّه سيظلم الشريكة والأولاد.

– يا لبرودة هذا الزواج... وبِئسَ الرجل الذي يحيا هكذا. هو لا يخون سوى نفسه لأنّه يظلم ذاته بالدرجة الأولى في حرمانها من السعادة على حساب كذبة يعيشها إلى جوار شريكة اسميّة فحسب. ألا يظلمها متى ضاجعها لمجرّد أداء واجب، متى كان قلبه وفكره كلّ لحظة بين يدَيْ أخرى؟ ألا يظلم هذه الأخرى، حبّه الحقيقي، بمنعها من عيش علاقتهما علنًا وزجّها في دوّامة تلوّح بها كلّ لحظة بين ألم الرضوخ لحبّها، أو هجره والإمعان في الألم أكثر؟

– ربما سلّموا بالأمر الواقع، بأنّ هذا ما كُتِبَ لهم، وأنّ كوارث مُهلِكة ستترتّب على فسخهم الزواج على حساب الحبّ.

– وأين كانوا ممّا كُتِب لهم عندما قرّروا أن يخوضوا الحبّ؟ أيَدٌ خفيّة حرّكتهم إليه وهم مغمضو الأعين؟ هم لا يسلّمون بالأمر الواقع، هم يهربون، يفضّلون اتّخاذ الطريق الأسهل لثقتهم بأنّ الحبّ سيكون متفهّمًا ويلازمهم، لأنّ الحبّ الحقيقي لا يعرف التخلّي. في أيّ حال، أرى الخائن، رجلًا كان أو امرأة، شخصًا ذا مبادئ ملتوية وقِيَم مشوّهة، يوظّفها على هواه ليُغذّي أنانيّته.

أضافت آية:

– أعتقد أنّ الحفاظ على الصورة الاجتماعية خوفًا من أحكام الآخرين يُحتّم على كثيرين عدم فسخ الزواج، أكان بداعي الخيانة أم سواها من الأسباب.

– الحياة واحدة لا تتكرّر! أيّ الحالتين أسْلَم: أن نراعي مجتمعًا لا يُراعينا ونعيش زواجًا بائسًا شكليًا ونضحّي بعمرنا من أجله، أم أن نعيش حياةً حقيقيّة سعيدة نابضة ونضحّي ببعض الأضرار؟ أيّهما

أصلح، أن نعيش واهما في الخفاء وآخر في العلن، أم أن نتصارح ونتفاهم ويذهب كلّ في سبيل؟

– هذه خطوة جريئة قد تؤثّر في الأولاد، وتهزّ استقرارهم النفسي.

– الأولاد يكبرون، يغادرون، وماذا يبقى للوالدين المزعومين متى رحلوا؟ ألا تعتقدين أنّنا نهزّ استقرارهم أكثر متى انهالوا علينا بأسئلةٍ لا نُجيبهم عنها كلّما رأوا فينا أصنامًا لا تتشارك سوى في رعايتها لهم، أو رأوا فينا متقاتلين في معارك شبه يومية، أو مُحبَطين لا نبتسم سوى لوجودهم؟ أليس من الأفضل أن نربّي أولادًا سليمي النفس لن يكرّروا ما اختبروه بسببنا، لا أولادًا بعُقَد كثيرة سيخلّفها وجودنا الوهمي معًا تحت سقف واحد ووجودنا الفعلي كلٌّ في عالمه؟ إن كان فكرنا واسعًا ومنطقيًا، فسيجد الجميع حلًّا حُبّيًا لكلّ شيء.

أسلفت ورد:

– لكن حتّى إن حاول الطرفان التفاهم حُبّيًا، فسوف تنتصب أمامهما العوائق المادّية في الغالب والتدخّلات العائلية، وتطوف الموروثات والعادات القديمة وتقضي على كلّ شيء. ويطغى على المرأة خوفها من العيب، وتستبدّ الذكورة وشرف الاسم بالرجل، ويتلاطمان ما بين مدّ وجزر، وممنوع ومسموح، وما يحقّ لي وما لا يجوز لكِ. وهذا ما يتفاداه معظم الناس. وفي انعدام التفاهم، تكون النتيجة مدمّرة، في انفصال وهجران أو في سكوتٍ ونكران.

– صحيح، هذه حال «معظم» الناس، ولنا الخيار في أن نكون منهم، أو من أصحاب الإرادة الحرّة، الواعين، الصادقين، الجريئين، المؤمنين بحقّهم في اتّخاذ قراراتهم وعيش حياتهم كما يرسمونها هم، لا كدمى يحرّكها المجتمع وأعرافه، وفي التفاهم بمعزلٍ عن التدخّلات مهما تكن والترفُّع عن النزاعات.

– هـؤلاء ينتمون إلـى فـئات مـحـدّدة، المشاهير والأثـريـاء والسياسيّين وأهل الفكر الحرّ. معظم الناس ليسوا منهم لتُبرَّر لهم أفعالهم وقراراتهم. والحياة ليست بهذه البساطة.

– الحياة بسيطة يا ورد، نحنُ من يعقّدها بعُقَدِنا ومخاوفنا.

تابعنَ تناول الفطور بتأمّل وصمت، قطعهما سريعًا جريان ابنتَي ورد إلى غرفة السفرة وبثّهما المَرَح في أجواءٍ كانت قد تلبّدت.

في قوّةِ الجذب، ينعدمُ احتمالُ الممكن،
فإمّا أن نكون معادنَ وإمّا أخشابًا.

مُقرِف!

أسرّت غَـزَل إلى نفسها وهي تنظر إلى زوجها يلتمظُ الدجاج المشويّ، يُغمّس اللّقمة بالثوم، يحشرها في فمه، يمضغها، يبتلعها دفعة واحدة، ينهش اللحم عن العظام، يمتصّ العظمة ويلعق أصابعه من بعدها وكأنّه لم يأكل منذ أعـوام. نظرت إلى بقعة الزيت على قميصه، إلى كرشه وفتات الخبز المتناثر على الطاولة والأرض.

أحسّت برغبة في قتله وهو يقول: «شكرًا غزّولتي على الأكل الطيّب! سَلِمت يداكِ! ما طبق الغد؟».

انقضّت عليه بغتة، وقع عن الكرسيّ، طرحته أرضًا، ثبّتته بكلّ ما فيها من اشمئزاز، وأمعنت يداها فيه خنقًا... في خيالها فقط.

لـم تُجبه، لكنّها أرادت أن تقول: «طبقُ الغد وليمتي وحدي، أغلى أنواع السُمّ وأسرعها مفعولًا».

ظلّت تسدّد سهام نظراتها إليه وهـو يغسل يديه وفمه فوق المجلى في المطبخ، ويرشّش الأرضيّة بالماء المتقاطر من يديه بحثًا عن المنشفة، يبدو كالعَجَزة ببنطلون بيجامته الرماديّة الواسعة المملّة، وقميصه الداخلي الأبيض، فيما توجّه إلى غرفة الجلوس

وكرشه يقفز أمامه، يمشي كبطريقٍ مباعِدًا بين قدميه، لما حلّ به من انتفاخ.

تهالَك على الأريكة، وضع ساقًا تحت ساق، أطلق ريحًا نتنةً إلى درجة تصيب بالغثيان، تناول آلة التحكّم بالتلفاز، تجشّأ، حكّ الطعام من أسنانه، شاهد الأخبار المسائيّة، ثمّ غفا وراح يشخر.

هكذا كانت معظم مساءات غَزَل.

لم تبدّل السنين شيئًا في أدهم، إلّا وزنه الذي بات مفرطًا. كان مهذّبًا جدًا. لا يحبّ المشكلات ولا يُكثر التخالط. ولقلّة ثقافته وتجاربه في الحياة، كان حضوره باهتًا: لا يتكلّم إلّا إذا كلّمه أحد. ولا يُبادر إلّا إذا اضطرّ. كان همّه العمل وتأمين حاجيّات عائلته وقد نجح في ذلك بامتياز. كان مُسالمًا حتّى الضجر، «نعم حبيبتي». «كما تريدين». «لا أمانع». كان ذلك محطّ كلامه المعتاد. كان رقيقًا جدًا ولم يبخل على غزل بالدلال والهدايا، ولا بعبارات الثناء. كان يشكرها دومًا على اهتمامها به، بولديهما، والمنزل، لكنّه لم يواكب اهتماماتها ولا رغباتها ولا فكرها. تمنّت لو استفزّها يومًا وحَرَد وخاصمها وانتظر أن تستميت لتراضيه، تمنّت لو أبدى رأيه حتّى في أتفه الأمور وعاكَسَها، تمنّت لو فعل شيئًا يستمتع به هو، هوايةً ما، لو جرّب شيئًا جديدًا، مغامرةً ما، لو ارتاد النادي الرياضي، لو خرج أكثر برفقة أصدقائه، لو فقأ فقّاعة الراحة التي لم يغادرها منذ أن عرفته.

راحت تجلد نفسها عتابًا وهي تغسل الأطباق بغيظ:

هذا ما أردتِهِ من الحياة يا بلهاء؟! هاه؟ أنتِ التي حصّلت من درجات العِلم أعلاها! أنتِ القويّة، الحازمة، المسؤولة! أهكذا ينتهي بكِ المطاف؟ ربّة منزل لا أكثر؟ أمًّا صالحة وزوجة مثاليّة؟ دميةً خزفيّة فاتنة... فارغة؟

تنهّدت. علت الحسرة ثغرها وطفا الدمع في عينيها والماضي يقلّب صورهُ المصفرّة في ذهنها.

تزوّجت بأدهم عندما كانت في سنتها الجامعيّة الأخيرة. أُعجبت بسلوكه يومها. أحاطها بالرومنسيّة التي ليّنت طباعها قليلًا، وأحبّت لَفَتاته التي لوّنت قنوط حياتها كثيرًا. هي لم تعرف فرحًا في بيت والديها وبحثت عن متنفّس بأيّ ثمن.

لها أخت تصغرها سنًّا، وكان لها أخ فقدته عندما كان في الرابعة من عمره بسبب مرضٍ نادر. مذاك، لم تعد أمّها على حالها. كدّرت على الأسرة كلّها العيش، ولم يقوَ أحدٌ على مواجهتها، فحسبها كآبتها ووجعها. حتّى والدها هجّ مُصارحًا ابنتيه بذلك. لم يلوماه، فأمّهما باتت جسدًا بلا روح.

كانت الأمّ، كلّما علت ضحكة في المنزل، أسكتتها. وكلّما ارتدى أحدٌ الألوان الزاهية، تذمّرت. منعت الموسيقا والبرامج الفكاهيّة. اعتذرت عن حضور سهرات الأعراس والاحتفالاتٍ وسواها. نأى عنها الناس لمدى يأس مجلسها. لم تبالِ. كانت تصرف وقتها شاردة، تقوم بأعمال البيت والطهو للضرورة. احتكرت إلى جانبها على الطاولة كرسيًّا لابنها الميت. وكلّما جلسوا لتناول الطعام، نظرت إلى فراغ الكرسيّ وقالت: «بالهنا يا ماما». لم تتخلَّ يومًا عن البطّانية التي كانت تغطّيه بها صغيرًا. ومتى علمت بأنّ غزل أو أختها غسلتاها، كان يُجنّ جنونها وتنتحب وتصرخ: «تريدان التخلّص من رائحته!؟ نعم هذا ما تريدانه! أنانيّتان! غيورتان! وقحتان! تريدان أن أنساه!؟ نعم هذا ما تريدانه بالضبط! ليتني أموت لأرتاح!»».

ومتى اشتدّ عليها اسودادها، كانت تُسكِت الكلّ فجأة وتقول: «ششه! ستوقظون أخاكم! اصمتوا! اصمتوا! اصمتوا!»، أو تعانق

بطّانيته وتداعبها مُهَلوِسة: «لا بأس حبيبي، هذا كابوس. لا تخف، نَم، أنت بأمان في حضني»، فيعرفون أنّها نسيت تناول دوائها.

ذات مرّة، كانت غزل تمسح الغبار في المنزل، فإذا بإطار صورة أخيها يقع من يدها فينكسر زجاجه. صفعتها أمّها بعنف، ولم تكلّمها على مدى شهر، إلى أن تدخّلت أختها وأقنعتها بعد جدلٍ طويل بأنّ غزل لم تكن تقصد ذلك.

دخل أدهم حياتها كالنور، أو أقلّه بصيص نور. لم تُغرم به يومًا. استحسنت فقط جانبه اللطيف المهدّئ. لم تعرف حبيبًا قبله إذ لم تُعطها الحياة وقتًا مستقطعًا لتُحِبّ بعد أن كدّرتها بثقل المسؤوليات والنُضج قبل الأوان.

بعد سنوات قليلة من الزواج، باتت علاقتها الجنسيّة معه مهمّة مُلزِمة. لم يكن مُنفّرًا. لكنّه لم يستثر أنوثتها قطّ. وباستثناء السنتين الأوليين من زواجها اللتين اختبرت فيهما بعض أحاسيس اللذة، لم تغلِ يومًا نارها لمعاشرته، ولم يضجّ جسمها ارتعاشًا له، ونادرًا ما انتشت عند مضاجعته. ربّما حدث ذلك مرّات معدودات بفعل الكحول لا بفعله. كان يظنّ أنّ المرأة تبلغ النشوة عند الجماع فقط، فكان يُسارع إلى هذه المرحلة متخطّيًا المداعبات والتلمّس والتحسّس وكلّ ما قد يذهب بعقلها. أنجبت منه صبيًّا وبنتًا. صبّت كلّ تركيزها فيهما عندما كانا صغيرين. أتقنت التهرّب من العلاقة الجنسيّة التي راحت تفتر على مدى عشرين سنة من زواجٍ افتقر إلى التجانس وإلى أيّ سِمة مشتركة.

وإذْ عَرَفَت متأخّرة أنّ نَفْسَها هي متنفّسها الوحيد، ركّزت في ذاتها وكانت تنفق عليها الكثير. اعتنت بمظهرها الخارجي، ولم تكن تفوّت فرصة تصفيف شعرها أو تغيير شكله أو طلي أظافرها وتقليمها.

كانت تتسوّق بشكل شبه يومي، وتشتري أيّ شيء، حتى وإن كانت لا تحتاج إليه أو لا ينقصها. طفحت خزانتها بآخر صيحات الموضة، بملابس لم تُلبس، بأحذية تشابهت، وبمكمّلات لا جدوى منها.

غير أنّ الأدوات الجنسيّة كانت أثمن مقتنياتها. معها استكشفت مكامن لذّتها، عرفت كيف تُمتّع بها جسدها، كيف تخطف منها روحها ولو لدقائق. جمعتها على مدى سنوات من أسفارها المتباعدة إلى أوروبا، وكان أوّلها قضيبًا اصطناعيًا زجاجيًا سمّته «لورينزو»، تيمُّنًا بالنادل الإيطالي الوسيم الذي علّق على جمالها في سفرتها تلك. وتنوّعت الأسماء بتنوّع الأشكال والحجوم وبلد المنشأ. كان «فرنسوا» مطّاطيًا رجّاجًا، و«روبرت» معدنيًا رفيعًا، و«فلاديمير» معقوفًا مرنًا، و«رودريغو» عريضًا بعروق نافرة تماثل العروق الحقيقية. لاحقًا، أضافت إلى مجموعتها الكرات المهبلية والعقود الخَرَزية والمُمَسِّدات الفَرجية والمستثيرات البَظرية. خبّأت كنزها في مكان سرّي مراعاةً لزوجها، ولم تستعملها سوى في غيابه. فهو، وإن كان ما هو عليه، يعاملها جيدًا ويحترمها. لم تبحث عن المتعة خارج المنزل. غير أنّها أرادت ذلك بشدّة كلّما أحسّت بموجة الحرّ تنبعث شَرِهةً من عينَيْ رَجُلٍ سال لعابه وتململ ما بين فخذيه أمام جسدها الرفيع المغري ونهديها المنتصبين وليل شعرها الطويل ووجهها العاجي ولآلئ مبسمها وسواد عينيها النجلاوين. خافت أن تُدمن التجربة، أن تطأ أرضًا قد يكون ثمن إيجارها باهظًا وعلى حساب ولديها، أن تُضطرّ إلى الكذب الذي لا تقوى عليه، أن تطعن أدهم الذي أحبّها كثيرًا ولم يؤذِها يومًا، أن تناقض الأخلاقيّات التي عاهدته عليها يوم الزواج، فارتأت أن تُبقي نفسها حبيسة.

* * *

باللهِ عليكِ يا غَزَل!

أليست هذه حال الغالبيّة؟ ألا تعرفين أنّ قلّةً فقط تحبوهم الحياة ذاك الحظ النادر في الحبّ والانسجام والانجذاب في الزواج؟ فنحن بمعظمنا نتزوّج من يناسب معاييرنا وأفكارنا وأهدافنا العائلية والاجتماعية التي أُسقِطت علينا، أو أسقطناها على أنفسنا، بغضّ النظر عمّن نريد اتّخاذهم شركاء لنا...

ونتزوّج لننجب. وبدل أن ننجب لندرك معنى معجزة الخَلْق تلك، لندع هذا اللغز يُبرعم بلا شرطٍ أو قيد منّا، ويُزهر على هوى ما هو عليه، لنتحمّل مسؤوليتنا تجاهه لأَجَلٍ لا بُدّ من أن يكون مسمًّى، ونحدّ من حجم سلطويتنا على كيانه، فنكتفي بنُصحه وإرشاده لا تطبيعه بطبائعنا وحشوه بما حُشينا به، ونَحتِه على شكلنا أو شكلٍ نحتناه له... نُنجب لأنّه المجرى الطبيعي للأمور، لنتساوى بسوانا، لنتسابق معهم. فلا يجوز أن يُنجب الآخرون ثلاثة ونحن اثنين.

ننجب لنكسو أيّامنا المتشابهة ببعض الفرح والكثير من التوتّر، لنتذمّر من هموم التربية، ولنشكر الله من ثمّ على بركاته، لنجعل للأخ إخوة، مفترضين أنّ الدمَ لا يستحيل ماءً، وأنّ الرابطَ الذي يصل بينهم لن تقطعه الجغرافيا ذات يوم، ولن تفرّقه شتّى دروب الحياة أو الكَنّة أو الصّهر.

ننجب لنضمن من يسلّينا ويشغل ساعاتنا ويسرّع انقضاءها، لنوثّق استمراريتنا في أجسادٍ أخرى بعد فناء أجسادنا، والأهمّ لنكسب سندًا سيكون لنا لاحقًا في شيخوختنا.

نصرف أربعين سنة وأكثر من عمرنا، ونحن نردّد على خَلَفِنا أن: «أكرِمْ أباكَ وَأُمَّكَ، لِكَي يَطُولَ عُمْرُكَ عَلَى الأرْضِ الَّتِي يُعطِيها إلَهُكَ لَكَ»، وكأنّ حياتهم وطولها رهن هذا الواجب فحسب، ونُمنّنهم منذ

الصغر بأنّ تربيتنا لهم دينٌ عليهم، ونستشهد عند كلّ تأنيب بقوله تعالى: «واخْفض لهما جناح الذُّلّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربَّيَانِي صغيرًا»، وكأنّ ترويع تلك النفوس الفتيّة بوجوب إطاعة أمر الله هو وسيلتنا الوحيدة للتثبّت من أنّهم لن يتخلّوا عنّا متى كبرنا.

أهي الأنانية في الأخذ مقابل العطاء؟ أهو الخوف من الوحدة؟ أهو الهلع من استقبال الموت غير مُحاطين؟

نصرف أربعين سنة وأكثر من عمرنا ونحن نرعى أولادنا، وأولاد أولادِنا، متيقّنين من رعايتهم لنا يوم مَرَضِنا الذي قد يدوم أسابيع بل شهورًا وربّما بضع سنوات. ومتى مَرِضْنا، ننسَ كلّ ما لقّنّاهم إيّاه، ويستولي علينا القلق والحياء لأنّنا بتنا عالة عليهم تُكدّر راحتهم، وتُخِلّ بميزان حياتهم.

وبين رغبتهم في وفاء دَيْنهم لنا والإيفاء بالتزاماتهم اليومية، نجعلهم يتخبّطون في صراعات لا تنتهي.

نصرف أربعين سنة وأكثر من عمرنا، نورّث أولادنا ما ورثناه من موجبات أخلاقية كتدابير احترازية لمستقبل كَهْل، لوجودهم إلى جانبنا لحظة موتنا، ولا نفكّر في أنّ الموتَ قد يأخذنا وهم بعيدون عنّا، أو أنّهم... قد يسبقوننا إليه.

«واحتمِلُوا أحَدُكُمُ الآخَرَ، وَسامِحُوا بَعضُكُمْ بَعضًا
حِينَ يَكُونُ لِأحَدٍ شَكوَى عَلَى آخَرَ.
فَكَما سامَحَكُمُ الرَّبُّ بِسَخاءٍ، سامِحُوا أحَدُكُمُ الآخَرَ.
وَفَوقَ كُلِّ هَذا البَسُوا المَحَبَّةَ الَّتِي تَجعَلُكُمْ مُتَماسِكِينَ
وَتامِّيْنَ. وَلْيَملُكْ عَلَى قُلُوبِكُمُ السَّلامُ
الَّذِي يُعطِيْهِ المَسِيحُ، السَّلامُ الَّذِي دُعِيتُمْ إلَيهِ
كَأعضاءٍ فِي جَسَدٍ واحِدٍ. وَاشْكُروا اللهَ دائِمًا».

رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي 3: 13-15

– لمَ لم يطلّقها إذن؟

– لا تسأليني... تكفيني لوعتي عليه. كم وددتُ لو فَرِحَ قلبه بولدٍ يحمل اسمه ويلوّن أيّامه. كيف لها أن تَحمل أصلًا وهي هيكل عظمي متنقّل! والأنكى أنّها قبيحة! أصرّ على الزواج بها وكأنّ النساء انقرضن.

لم تستأ آية من هذا الحديث الذي تناهى إليها خلسةً من شرفة منزل حمويها حيث جلست والدة زوجها وجارتها تحتسيان القهوة وتتقاذفانها بين رشفةٍ وأخرى. إنّها حماتها ذاتها التي تقول في حضورها: «حبيبتي آية، ستّ الستّات! نيّال إبني فيكِ!».

علّمتها الخيبةُ تقبُّلَ كلّ شيء، خيبةُ أن تكون امرأة.

أخبرتِ الجميع أنّها العاقر لئلّا تشوّه صورة زوجها في عيون ذويه وعيون الناس.

لا بأس إن ألقوا بالذنب عليها. فما الفرق؟ ستُدان في كلّ الأحوال، فهي امرأة.

كانت من القانعات بواقع الحال، ممّن يعتبرن الحظّ والسعادة بركةً تحلّ علينا أو لا تحلّ، مُنية غير مُستجابة، جوهرة في قلعة

جليديّة مسنّنة محظورة على من يتضرّعن للمسها فقط، ومباحة للقلّة القليلة من المتمرّدات اللواتي يسعين إلى طِلبتهنّ ولا ينتظرن أن تنزل عليهنّ من السموات، اللواتي يجابهن الخُبث بفضحه، والباطل برفضه، والجهل بمَحْوه.

عندما كانت في الثانية عشرة، ولدى عودتها مشيًا من المدرسة ذات يوم ربيعي، شعرت بمغصٍ أسفل بطنها. أحسّت بشيء انسال دُفعة واحدة بين فخذيها وتوقّف فجأة. أسرعت إلى المنزل، دخلت الحمّام ورأت خيطًا بنّيًا داكنًا يلطّخ سروالها التحتي. ارتبكت. غصّت بالبكاء مُعتقدةً أنّها تغوّطت لاإراديًا. خرجت لتخبر أمّها بالأمر وهي ترتجف. خالت أنّها ستستاء من البقعة لأنّ غسْلها صعب وأنّها ستعاقبها لا محالة. غير أنّ أمّها اكتفت بالقول لها بحسرة: «فليُعنكِ الله ويُعِنّا. بدّلي لباسك وضعي هذه. غيّري الفوطة كلّما غرقت بالدم. من الآن فصاعدًا، ستأتيك كلّ شهر، أفهمتِ؟».

لا، لم تفهم أنّ الحيض كان الخطوة الأولى على درب الجلجلة.

وفي سنوات مراهقتها، لم تخالط أحدًا إلّا حين تزنّرها أمّها إلى خصرها في زياراتها التي اقتصرت على الجيران والأقارب. ذيّلها شقيقاها في كلّ سهرة ارتادتها. ولم يوافق والدها على مشاركتها في أيّ رحلات ترفيهيّة مع أصدقائها باستثناء الدينيّة منها التي كانت تنظّمها الكنيسة.

وعندما بلغت الثامنة عشرة، نبّهتها أمّها يوم انتقالها من قريتها في أقصى الشمال إلى بيروت لدراسة علم النفس: «حريّ بكِ أن تكوني من الأوائل. لسنا ننفق على تعليمكِ ثروة لتكوني من المتقاعسات». وأضافت مهدّدة متوعّدة: «من غرفة الصفّ إلى

مسكن الجامعة، ومن المسكن إلى غرفة الصفّ. إيّاك وتلك الفعلة الحرام، سنتبرّأ منك إن لمسكِ شابّ، سنقطعك نصفين ونعصر دمك ونرمي بلحمك إلى الكلاب! أفهمتِ؟».

لا، لم تفهم كيف لشابٍّ أن يلمسها من دون موافقتها. ما العيب في الحبّ؟ كيف لأمّها أن تعلّب أحاسيسها هكذا وكأنّها تقتصر على تلك الفعلة «الحرام»؟ كيف لها أن تؤطّر كلّ حياتها في الدراسة فقط. ما العيب في أن تخرج برفقة زميلاتها؟ أن ترتاد السينما؟ أن تحيا حياةً طبيعيّة؟

وفي العشرين، عندما انجذب قلبها إلى مجد، قالت لها أمّها: «فليشرّفنا إلى البيت. بناتنا لسن للتسلية. أفهمتِ؟».

لا، لم تفهم. ألم يكن يحقّ لها أن تدعوه إلى مسكن ذاتها أولًا ليتعرّفها قبل أن يتعرّف بيتًا من حجر لا يقلّ ساكنوه عنه تحجّرًا؟

اضطرّت مُكرهة إلى الكذب كلّما أرادت لقاءه على انفراد بعد انتهاء الحصص الدراسيّة وقبل موعد المكالمة الهاتفيّة اليوميّة من والدتها. كانت الكنيسة ملجأهما. هكذا لم تكن تشعر ببالغ الذنب، فبيت الله يطهّر الآثام.

وبعد أن تزوّجت، حثّتها أمّها: «احملي سريعًا وجرّبي الوسائط التي تضمن حملك بصبيّ، هكذا تحفظين مكانتك إلى الأبد في كنف زوجك وعائلته. أفهمتِ؟».

لا، لم تفهم كيف للإنجاب أن يكون دَمغة قبولها في الصرح العائلي وكأنّ رحمها وزنة قيمتها.

وعندما عاكستها الحياة، قبلت الإذعان لأمر الله. رفعت معاناتها إلى مريم. التجأت إليها كثيرًا. على الأقلّ هي عطوف

متساهلة. لا تقرّعها ولا تدينها. هي حنونة صادقة. لا تصطنع محبّتها ولا تتقن الرياء.

لحسن حظّها، كان مجد متديّنًا أيضًا، ولهذا لم يرتكس يوم أبلغه الطبيب بعد تشخيص حالته وكثير من الفحوص أنّه عاجز عن الإنجاب بسبب إصابته بداء النكاف في طفولته الذي أدّى إلى انتفاخٍ خصويّ والتهاب شديد لم يُعالجا يومها كما يجب.

تقبّل وضعه بسلام وأراد أن يخبر الجميع، لكنّ آية منعته.

كان يشكر الله دائمًا على كلّ شيء، وخصوصًا على آية.

من شَقٍّ بسيطٍ يدخلُ النور، ويتسرّبُ الماء،
وينسلُّ الهواء، وكذلك الأمل.

قال بغَيظٍ:

– أين هو؟

– لحظة.

«إلهي! لم أجلبه!»، فكّرت في سرّها.

تفقّدت بهستيريّة الأكياس على الطاولة البلاستيكيّة لعلّها جلبته.

قالت بتردُّد من دون أن ترفع نظرها إليه:

– عفوًا... نسيت.

لم ينطق بكلمة. استدار وكأنّه يخرج من المطبخ. أغمضت عينيها وكتمت تنهيدةَ ارتياحٍ للحظة لم تكتمل. وإذا برأسها يرتجّ وطنينٌ في أذنها اليُمنى يُدوّي. داخت. أمسكت رأسها بيديها. فتحت عينيها ورأت قبضته تسقط من جديد على أذنها في لكماتٍ أربع شَرِسة سريعة متتالية. أحسّت بسائلٍ ساخن ينسال على رقبتها. تحسّسته بأصابعها المرتجفة. كان مجرّد دم.

قالت بعينين دامعتين وصوت مخنوق وهي تحاول التراجع عنه:

– أرجوك يا أشرف... أرجوك! ارأف بي!

اعتصر ذقنها، قـرّب وجهها إلـى وجـهـه، وقـال زامًـا شفتيه بعصبيّة:

– ألا تعرفين أنّ للأفعال عواقب؟

– أُقسم بالله أنني نسيت! سأذهـب الآن لأجلبه! أرجـوك، دعني أذهب!

قالتها وهي تشيح بوجهها عنه.

– كان حريًّا بكِ ألّا تنسي!

دفعها من صدرها فارتطمت بالثلاجة. شدّها بعنف من ياقة قميصها، فَتَلَها، دفعها من ظهرها، لَكَمَها تحت كتفها ورمـى بها إلى الأرض.

هـوت جانبيًا، فانفتلت ذراعـهـا تحتها وكـاد وجهها يصطدم بالبلاط لولا أنّها حمته بكفّها اليمنى.

جَمَعَ ما وقـع تحت يديه من ثمار الفواكه والخُضَر القليلة، ورجمها بها.

التقط قنّينة الزيت عن الطاولة، رَبَضَ على بدنها وأفرغ الزيت على رأسها وفي فمها، ممرّغًا وجهها بما بصقته لئلّا تختنق.

انتصب فوقها زافرًا. هدأ لحظة ثمّ رفس مؤخّرتها بكلّ قوّته، فانطرحت أرضًا.

حاولت الانغلاق على نفسها رافعةً ذراعها أنْ كفى. غصّ حلقها بالبكاء وعَلِقَ فيه الكلام، وكلّما بكت، استفحلَ غِلًّا.

أمسك بأصابعها ولواها إلى خلف، ثـمّ استلّها من شعرها ورفَعَها به لتقف قبالته. أحسّت أنّ فروة رأسها تكاد تنسلخ عنها. حاولت أن تُثنيه عن فِعله، أن تُبعد يده عنها. طلبت المغفرة. لكنّه لم يستجب،

بل ازداد ضراوة. صفعها على وجنتها وغرز أظافره في وجهها. استجدته أن يتوقف وهي تتأوّه ألمًا.

قال ولا تزال أظافره تُدمي وجهها، ووجهه يستشري حنقًا:

– ششششه! اخرسي يا قحبة! اخرسي!

كبّل عنقها والنار تستعر في عينيه. جحظت عيناها أسىً ودمعًا. حاولت التنفّس. حاولت المقاومة. حاولت فكّ قبضتيه عنها لكن عبثًا. قذف بيديها عنه. جذبها من ساعِدِها يسوقها خارج المطبخ. غرست قدميها في الأرض لكنّها زلّت على الزيت المنسكب منها. تشبّثت بحاجب الباب، بكلّ قطعة أثاث في دربها لكنّها لم تُعِنْها. دفعها من ظهرها مجدّدًا، رَكَلَها أسفله بكلّ ما فيه من سفالةٍ، فسقطت.

قال:

– هذا ما جنيتِ به على نفسكِ يا دابّة!

فكّ حزام بنطلونه وهو يجعر بصوت نبّاح:

– نسيته يا بنت الكلب؟!

جَلدةٌ، فثانيةٌ، فثالثةٌ صفعت جِلدَها ومزّقت قميصها الرثّ وكلّ ما فيها من أحاسيس.

رَجَتْهُ مجدّدًا أن يتوقف وهي تنوح وتدبّ على الأرض هربًا من حَيْفه. أمسكها من تنّورتها. رفعها إلى ظهرها. أسدل بنطلونه برعشةٍ إلى قدميه. جثم فوقها. ألصق وجهها بالأرض. أزاح سروالها التحتي. وَلَجَها من الخلف، نكحها بوحشية ثورٍ هائجٍ، وقذف في دقائق قليلة.

وانسدلَ صمتٌ ثقيلٌ ثقيل.

أرخى ساقيه واستلقى فوقها خائرًا. داعب شعرها، مسح دمعها، وهمس في أذنها بصوتٍ خافت:

– لم أُرِد فعل كلّ ذلك. لكن... أنتِ أجبرتني عليه. لا تنسي في المرّة المقبلة.

استقام، عدّل ثيابه، توجّه إلى الحمام، غسل يديه، التقط مفتاح السيّارة، وهمّ بالخروج نحو الباب. قال:

– لا تقلقي بشأن ابننا. سأمرّ بالمدرسة لأُقِلَّه بنفسي.

بقيت طريحةَ الأرض كما تركها، معطّلةَ الذهن والحسّ، اللعاب يسيل من زاوية شفتيها يحرق غُرزات الأظافر التي شطّبت وجنتيها، بقيت محدّقة عبر زجاج عينيها وغشاوة دموعها إلى الشَقّ الموازي لنظرها في الحائط.

تكلّفت الابتسام، وقالت لنفسها:

– غدًا يومٌ آخر يا فِدا. هلُمّي انهضي...

لا جدوى من أن تخيطَ جرحًا
سَبَقَ أن مزّقَ الروح.

وصلت فِدا إلى منزل والدتها تحمل كيسًا من الفواكه. وبينما كانت تضعه على الطاولة، سقطت منه بضع برتقالات. انحنت لتلتقطها، فمالَ شعرها إلى الأمام وتبدّى من فتحة بلوزتها هلالُ بقعةٍ كبيرة تحت عظم الكتف. كانت أمّها خلفها. استغربت اللون. اقتربت منها، أزاحت طرف بلوزتها، ورأت لطخة زرقاء فحميّة وكدمات أصغر أخرى مصفرّة ومخضرّة دليل أنّها أقدم من الأولى.

وَجِلَت فدا واستقامت بسرعة مُعدِّلة لباسها.

– ما هذه؟!

– سقطتُ على الدرج قبل فترة.

– السقوط لا يُحدث كدمات مماثلة. ما هذه؟!

عجزت فدا عن كبت ألمها أكثر، فانفجرت بالبكاء وعانقت أمّها التي ضمّتها ببرودة وسألتها من جديد:

– ماذا حدث؟ أخبريني!

– أشرف ضربني.

– ماذا فعلتِ له؟

– أنا ماذا فعلتُ يا ماما؟!

– لا بُدّ أنّكِ أغظته! أو فعلتِ فعلةً لا تجوز!

– لا! ضربني لأنّه طلب أن أشتري بعض الفواكه وأنا في طريقي إلى المنزل. التفّاح تحديدًا. اشتريتها كلّها، لكنّني نسيتُ التفّاح! ضربني من أجل التفّاح يا ماما!

– ربّما كان في مزاجٍ سيّئ، ولم يكن التفّاح السبب. لا بأس، سامحيه. لن يكرّر فعلته بكلّ تأكيد.

– بالطبع لن يكرّرها! سيكون أكثر ابتكارًا المرّة المقبلة. هو يضربني منذ سنوات! لم أعد أقوى على التحمّل. ولم أقوَ على إخبارك. أشكر ربّي أنّك رأيتِ بعينك! بيته غرفة تعذيب متواصل... سأرجع... نعم سأرجع... معكِ سأشعر بالأمان، سأهرب وأدّعي عليه وأطلب الطلاق!

– معي؟ يعني تريدين العودة إلى العيش... هنا؟ في هذه البناية؟ وهذا الحيّ؟

– وأين أذهب ما لم يكن إلى هنا؟

راحت أمّها تلطم وجهها، تتلفّظ بالشتائم، تدور في أرجاء الغرفة، تلوّح بذراعيها يَمنةً ويَسرة، تُوَلْوِل، تشدّ شعرها وتخبط جنبيها. جمدت لحظة، تغيّر وجهها، ثار فيه الدم، نتأت عيناها وانطلقت كالسهم ناحية ابنتها. ارتدّت فدا خطوة، صالبت ذراعيها أمام وجهها وأمالت برأسها يسرةً. أمست هذه الحركة ردًّا فطريًا لديها لكثرة ما كرّرتها. تحوّلت أمّها إلى مسخٍ شيطاني لم يسبق أن رأته في حياتها، واشرأبّت وزمجرت:

– معي يا بنت الكلب! ماذا سيقول الناس عنّي! أين سأدفن وجهي من وشوشات الجيران كلّما مررتُ بهم؟! سيتلوّى والدك في قبره! تريدين أن تنكّسي رأسي آخر عمري؟! قسمًا بالله سأخنقك إن فعلتها! تفه!

تطاير رذاذ البندقة إبرا وخزتها، اخترقت وجهها، فدماغها، وأيقظت ومضاتِ من الماضي.

استحضرت والدها الذي خامَر كلّ أطياف الذلّ بعد أن التهمت نيران الحرب الأهليّة معمل الأخشاب الذي كان يملكه، وأودت به إلى شبه الإفلاس.

استرجعته عائدًا إلى المنزل ليلًا يجرّ خطاه ثَمِلًا ويعلو الصراخ بينه وبين أمّها، فتنزوي هي في غرفتها، تجلس على سريرها، تعانق ركبتيها، تطمر رأسها داخلهما، وتهتزّ إلى أمام وخلف إلى أن يخفت الصوت ويتحوّل إلى نواحٍ رقيق يتلوّى له الصوت الخشن: «آخ... ما أذلّك عيشة!».

استردّت أمّها الشابّة التي كانت تنعتها في صغرها بالبدينة التي لن تستهوي أيّ رجل عندما تكبر، ناعيةً سوء حظّها بوراثة السُمنة عن عائلة أبيها، خلافًا لها هي الرفيعة الرشيقة. كانت تُسقط عليها كلّ هزائمها، وتكرّر على مسمعها أمام جاراتها بأنّها غلطة عمرها لأنّ الحَمْلَ المفاجِئ بها منعها من تحقيق حلمها بالمشاركة في حفل ملكة جمال لبنان لعام 1974 بعد أن قُبلت من بين المرشّحات.

تذكّرت أنّ والدتها نادرًا ما كانت تشملها بأيّ عطف، وغالبًا ما كانت توبّخها إن سقطت أو انجرحت. وكانت تقنعها بأنّ هذه القسوة لمصلحتها، لأنّ الحياة وعرة وعلينا بالصلابة لعيشها.

تقاطر دمع فِدا حتّى شرقت بمائه. أحسّت بخدرٍ شلَّ جسمها ورأسها. اختلطت عليها أمّها. أهذه حقًا من وَلَدَتها؟ من هذه المختلّة العقل المتحجّرة القلب؟ أهكذا تُخفّف عنها؟ أيّ أمٍّ تتخلّى عن أولادها؟

استعادت فدا نفسها بعد دقائق، وصرخت بصوتٍ قطّعه البكاء:

– أهذا أكثر ما يُقلقك؟ أكلام الناس عندك أغلى من روح ابنتك الوحيدة؟! أقول لك إنّه يضربني باستمرار، أمام ابني حتّى! يقول لي: يلّا يا بقرة فوتي على الحَلْب! ويُجبرني على ممارسة الجنس بأبشع الطرق وأكثرها شذوذًا. وعندما ينتهي، يقول: خنزيرة وسخة لا تصلحين لشيء! يقول إنّه سبب عيشي وعيشك لأنّه انتشلنا من الفقر، إنّه ورقتنا اليانصيب الرابحة، وعليه اقتطاع ضريبة عليها! وما أدراكِ أيّ اقتطاعٍ وقطعٍ وحرقٍ وشدٍّ وركلٍ وخنق! ضريبة الفقر باهظة يا أمّي! باهظة!

– جدي حلًّا! افعلي ما تريدين! لكن إلى بيتي لن تعودي مطلّقة!

– لن أعود مطلّقة... سأعود جثّة!

انبرت فدا خارجة، صفعت خلفها الباب الخشبي المتشقّق، وهبطت السلالم العشرين الرمادية المتكسّرة البلاط، وهي لا تراها من طوفان دموعها. مسحتها قبل أن تتّخذ الشارع القذر فلا يجوز أن يراها أحد على هذه الحال. مشت محنيّة الروح، وعيناها تتنقّلان على خُطى اسكربينتها السوداء البالية الرخيصة التي تحفّ مؤخّر قدميها مع كلّ خطوة. مرّت بجانب ورشة تصليح السيّارات التي يملكها أشرف. لم يكن فيها. اضطرّ اليوم إلى اصطحاب والده المريض إلى المستشفى.

شَخَصَت أمامها دقيقة، لاعنةً ذاك اليوم المشؤوم الذي ربط مصيرها به.

* * *

بعد وفاة والدها، اكتشفت أنّه لم يورّثها سوى الديون، وأنّ إفلاسه كان السبب خلف كلّ مشاحناته ووالدتها.

طرقت والدتها أبواب العائلة لعلّها تتجنّب بيع منزلها في المزاد العلني لكنّها لم تلق مُعينًا. كانت الحرب الأهليّة مُشتعلة، ولا يكاد أحد يعول نفسه. شرعت في بيع أثاثها الثمين بأبخس الأسعار، واضطرّت إلى بيع آخر حُليّها حتّى تمكّنت من استئجار بيت وضيع في الحيّ الفقير الذي سكنه أشرف، ريثما تبحث عن عمل، أيّ عمل. وجدت وظيفة شاغرة نهارًا في معمل البلاستيك في المنطقة الصناعيّة المجاورة لمكان سكنها. خاطت الكروشيه والأشغال اليدوية ليلًا لتتمكّن من تسديد حاجيّاتها، وانفصلت بذلك عن كلّ ما ربطها وفدا بحياتهما السابقة وكلّ من كان فيها.

أخذ أشرف يتودّد إلى فدا كلّما صادفها في الشارع، يُلقي عليها تحيّاتٍ صامتة برأسه، يبتسم لها ويغمزها. اقتنص صداقتها مع قريبته ليلتقيها ويحدّثها، وسرعان ما تقدّم إلى خطبتها. حاولت صديقتها ردعها لمعرفتها به وبتاريخه. غير أنّ فدا رأت فيه خشبة الخلاص. حثّتها والدتها على قبوله. كان لطيفًا معها في البداية ووعدها بالكثير. كان وسيمًا وأُعجبت به. إذن أمّها على خطأ! فها هو شابّ يبدي اهتمامًا بها... هي السمينة الأطراف، الممتلئة الوجه، المربوعة القامة التي بلغت عامها الثاني والعشرين ولم تكن قد واعدت أحدًا حتى ذلك الوقت.

لم تعرف أنّها كانت الفريسة المثالية على وليمة عُقَدِه.

اكتشفت بعد أشهر من الزواج المتواضع الذي جرى بحضور والدتها وعائلته المباشرة وبعض الأصدقاء فقط، أنّه أراد أن يتزوّج لمجرّد أن يكون له ابن. كان يردّد متباهيًا أمام أصدقائه: أريد أن أنجب ذكرًا لأربّيه تربية الرجال الصالحة، لتنحني له امرأته، ليدوسها بقدميه إن عاندته ولو برمشة عين!

وبعد أن سمع من أحد زبائنه بطفل الأنبوب الذي يتيح له اختيار جنس المولود، انكبّ يعمل ليل نهار لكي يدّخر تكلفته الباهظة.

اكتشفت أنّه يكره والدته كُرهَ الشرّ للخير، أنّه يرى شيطانها في النساء قاطبةً. مَقَتَ عظم وجهها الناتئ وأنفها المستدقّ وعرض منكبيها وثُخن قوامها، وكأنّها مسبوكة من أسمنت. أبغضه لسانها الفظّ ويداها العنيفتان الخشنتان اللتان سقتاه وأخاه الضرب خلًا يوميًا حتّى كادتا تخلعان ذراعه ذات مرّة لو لم يتصدَّ لها والده:

– كفاكِ يا امرأة! أقسم أنّني سأقطع عنقك إن لم تكفّي عن ضربه!

– الآن صرتَ رَجُلًا يهمّه ولداه؟

– رجلٌ رغمًا عن أنفك! وولداي أفديهما بحياتي!

– لو كنتَ رجلًا لما انحططنا إلى هذا القرف بسبب سذاجتك ودهاء أشقّائك! أيُّ رجلٍ يقف متفرّجًا أمام أمواله تُنهش وأراضيه تُنتَهَك!؟

– اخرسي! لا تُهيني رَجُلَك!

– عن أيّ رَجُل بالضبط تتحدّث؟ سائق الشاحنة القَذِرِ المتعرّق، الطَرطور، المُفلِس، أم صاحب القضيب الذي مهما انتصب يبقى بحجم قطعة نقانق قزمة؟

– والله سيجيء أجلي بسببك!

– فليجئ، لأرتاح منك ومن منظرك المقزّز!

نما أشرف مصبوبًا في حدود هذا القالب. كَبِرَ صغيرًا ووالدته تنعته بـ«المخنّث» كلّما صرخت دموعه ألمًا من القَرْص والركل والصفع، وضربات الحزام وعصا المكنسة.

بلغ مراهقًا يراها تطوف حول كلّ صديق له استثار بنت آوى المتلطّية فيها. استهواها تعيينًا ابن الثمانية عشر ربيعًا، بتقاسيمه الغليظة وجلده الموشوم بكلّ حجوم الجماجم والنساء العاريات. ولاستمالته، كانت تُحضّر الأطباق التي يحبّها كلّما زار ابنها، تضحك على نكاته البذيئة، وتتحوّل فجأة إلى أظرف النساء وأرقّهن.

في إحدى تلك الزيارات، لم يقوَ الشاب على النهوض بعد أن كَرَع رطلًا من الكحول. أصرّت عليه أن يبيت عندهم، فبيت الضيق يتّسع لألف صديق.

بعد انتصاف الليل، استيقظ أشرف لدخول الحمّام، فتناهت إليه حشرجات خافتة آتية من غرفة الجلوس. أزاح قليلًا الستارة التي فصلتها عن غرف النوم فرأى والدته تقف خلف الكنبة التي افترشها صديقه للنوم، منحنية فوقه، منفرجة الساقين، تعضّ أذنه، تلعق رقبته، تداعب قضيبه بيد وتلامس صدره العاري بأخرى، فيما ألقى برأسه على كتفها وشَدَقَ فمه لشدّة هياجه.

أمسك بها من شعرها، مدّ عنقه إلى شفتيها وامتصّهما، قال:

– أريده في فمكِ! أرجوكِ!

– لدينا الليل بطوله لنعبث. قف!

وقف. أسقط سرواله الداخلي واندفع نحوها لاهثًا. تراجعت. اندفع أكثر. تراجعت إلى الحائط وهي تشير عليه بأصابعها العشر أنْ تعال.

ارتدّ أشرف إلى الوراء وأعاد الستارة إلى مكانها لكنّه ظلّ خلفها يسترق النظر من أحد ثقوبها.

قالت أمّه للشاب:

– اركع! أرني كيف لجروٍ جائع مثلك أن يمتصّ وجبته اللذيذة!

رفع قميص النوم إلى وسطها وأخذ يلعق فرجها وهي تشهق وتزفر بكلّ كلام إباحي. شدّته بعد دقائق من وجهه لكي يقف، التصقت بجسمه، أخذت تمطّ عضوه على مهل، تحفّ فرجها على فخذه وثدييها على صدره. قرصت مؤخّرته، صفعتها، واستدارت مستندةً إلى الحائط بذراعيها:

– أدخله! أرني ما يُمكن لهذا القضيب العريض أن يفعل بي!

دوّى الصراخ في رأس أشرف وبقي فيه.

اهتزّت أطرافه غضبًا.

عضّ عضلة الإبهام في قبضته حتى آلمته.

غرز أظافره في ساعده حتى نزف، وعاد من ثمّ إلى فراشه كطفلٍ مطيع بعد أن قضى حاجته.

وهكذا دَرَج على تكرّر هذه المشاهد. تعرّف إلى رفاق السوء الذين أرشدوه إلى الإدمان، ومع أنّه لم يتعاطَ الكوكايين والهيرويين لأنّهما أوديا بحياة صديقه المقرّب، فقد أدمن الحشيشة والسرقة وسُجن على أثرهما. أصيب والده بقصور في الكلى، وكُرمى له ولوقوفه إلى جانبه صغيرًا كلّما أسعفته جرأته، بحث عن عملٍ ليتمكّن من دفع تكاليف العلاج. اشتغل بميكانيك السيّارات لدى ورش مختلفة إلى أن استقلّ بعد سنواتٍ وتمكّن من افتتاح ورشته.

وكم تمنّت لها فدا أن تحترق، ويحترق معها أشرف.

24 كانون الثاني/ديسمبر 2015

– كم الساعة حبيبي؟

– الخامسة والنصف. ألَمْ يكن من الأفضل أن نطلب طعامًا جاهزًا؟

– أنت تعرف أنّني أحبّ أن أطهو بنفسي تكريمًا لضيوفي. وفضلًا عن ذلك، سبق أن ردّدتَ الجملة نفسها ثلاث مرّات اليوم.

قالتها وَرْد مبتسمة، وهي تدهن الدجاج الرومي بقطَع الليمون الحامض وخليط المريميّة والصعتر والثوم والزيتِ والملح والبهار، تحشوه بالجزر والبصل وتسكب فوقه النبيذ الأبيض تحضيرًا لخَبزه.

قال فريد بجفاء واستهجان ملوّحًا بيده في اتجاهها:

– انظري إلى نفسك وكلّ هذا الانهماك. ستصل العائلة عند السابعة والنصف وأنتِ لم تجهزي بعد.

– لا تقلق! كلّ شيء تحت السيطرة! من فضلك، أشعل الحطب في المدفأة.

وضعت الدجاجة في الفرن، نزعت المئزر، نادت على ابنتيها لتشاركاها مدّ الطاولة، رفعت صوت فيروز بأغنياتها الميلاديّة وراقصتهما على الأنغام بجذلٍ عظيم.

كان هذا العيد أحبَّ الأعياد إلى قلب ورد. ربما لأن قلبها نقيٌّ نقاءه، لأنّها تُقارب اجتماع العائلة بمعنًى أسمى من تحلّق أفرادها حول مائدة الطعام لبضع ساعات. كانت ترى في كبارهم بركة قد تُسرَق منها في أيّ لحظة، وفي صغارهم نعمةً ستغادرها ذات يوم. كانت تعطي مع كلّ هديّة بعضًا من ذاتها، من دفئها ومحبّتها.

توافد أفراد العائلة يحملون وافر الابتسامات والهدايا والحلويات والمشروبات. تبادلوا الضحكات والفرح واستمتعوا بكلّ ما طاب من أصناف الطعام.

اندفع الأولاد إلى الهدايا الملفوفة تحت شجرة الميلاد بأضوائها الوامضة ومزّقوا أغلفة العلب بلهفة ودهشة واستمتاع. التفّ المنزل بكثيرٍ من الحبور وعَبِقَ بشذا الشموع المعطَّرة بالقرفة والزنجبيل. سالت الأمسية دافئة، هادئة هدوء هسيس النار في المدفأة. لعب الصغار بهداياهم الجديدة، وافترش المراهقون الأرض يلعبون السبعة والنصف، واستغرق فريد وشقيقه في لعبة الشطرنج؛ أمّا النسوة، فتسامرن وهنّ يُساعدن ورد في رفع الأطباق.

انصرف الضيوف قُبَيل منتصف الليل. هيّأت ورد ابنتيها للنوم قبل أن تتوجّه إلى الكنيسة الصغيرة القريبة من منزلها لحضور قدّاس الميلاد. كان تقليدًا سنويًا التزمته. لم تكن متديّنة، بل مؤمنة بوجود تلك الطاقة الجليلة التي لا تبلغها مداركنا، التي لطالما تضرّعت إليها في وحدتها، وكانت تستجيب لطِلبتها بإشاراتٍ كثيرة.

ما إن دخلت الكنيسة الخافتة النور التي تناثر فيها بعض المؤمنين، حتّى شعرت بطاقة عارمة تلفّها وكأنّها غلاف كروي شفّاف خانق أطبق عليها.

ضاق صدرها. تنفّست بعناءٍ أثقلته رائحة البخور.

إلى يمينها، قرب المدخل، قامت أيقونة للسيدة العذراء وشموع مضاءة في حوض رملي تحتها. دنت منها، تناولت شمعة غير مضاءة وقرّبتها من إحدى الشعلات. انسكبت دموعها رغمًا عنها.

لا تزال الموجة تغطّيها.

أضاءت شمعة ثانية، فثالثة. رفعت نظرها إلى الأيقونة. رسمت إشارة الصليب وتلت صلاة الأبانا وهي تنحّي بأصابعها المرتجفة جريان الدمع على وجنتيها. لم تعرف ما سببه، فقد عادت لتوّها من عشاء عمّه الفرح.

بحثت عن منديل ورقيّ في حقيبتها وهي تتقدّم إلى صحن الكنيسة. لم تجد أيًّا منها. شدّت كمّ بلوزتها، جفّفت به عبراتها ومسحت أنفها الذي سال. انحرفت يمينًا عند صفٍّ فارغ من صفوف المقاعد لتجلس لكنّها ركعت تلقائيًا. كانت المرّة الأولى التي تجثو فيها في الكنيسة. وقبل أن تُغمض عينيها، تنبّهت إلى أنّها في الصفّ الثالث. شبكت أصابعها وأسندت جبهتها إلى قبضتيها.

– ربّي، أَرِحْ هذه النفس المُتعَبة.

هذا كلّ ما تمكّنت من قوله في سرّها وهي تُصغي إلى التراتيل التي كانت تتناهى إليها وكأنّها تخرج من قاع بئر عميقة وتصلها بُحّة صدى.

انفتحت بصيرتها من دون بصرها.

تبدّل المكان. اختفى الهيكل والأعمدة والمقاعد والناس. كانت تحت قبّة تراصفت على مدارها أيقونات ضخمة بلا أُطر، وعمّها سلامٌ غامر ونور الشموع الواهن والترانيم المهوّدة.

أحسّت بأنّ حضورًا خفيًّا هبط عليها واتّخذ جانبها. ابتسمت لما لا تراه.

أخذ مَنْ في الأيقونات يدنون منها، واحدًا تلو الآخر. وكان أوّلهم الملاك حامل البوق. هزّت رأسها. حاولت فتح عينيها ولم تستطع. بدوا حقيقيين متجسّدين. حاولت الكلام لكنّ صوتها رفض إطاعتها. هم الآن متحلّقون حولها، ينظرون إليها من فوق، يؤدّون إشارة بأصابع ثلاثة من اليد اليمنى لكلٍّ منهم.

لم تكن خدعة من حواسّها ولا حيلة نسجها عقلها. خافت. خفق قلبها. احتضنت نفسها وسجدت. اجتاحتها تلك الطاقة من جديد أقوى من الأولى بأضعاف، وبكت أكثر.

نبكي، متى أرادتِ الروحُ أن تتكلّم.

كثيرةٌ هي أمور الحياة التي نعجزُ عن تفسيرها. أفكارٌ تُخالِجُنا ولا نجدُ لها مُضيفًا في الواقع. مشاعرُ تنتابُنا ونحرِفُها عن وُجْهتِها، فتستحيلُ عذاباتٍ مُثقِلةً وأمانيَ مكتومة وصَرَخات بكماء تتّقدُ نارًا في أجوافنا، ترتفعُ رويدًا إلى صدورنا، تحرقنا، تُطبِقُ على رئاتنا، وتنطفئُ دموعًا في عيوننا... ونبكي.

نبكي أحيانًا بلا سببٍ، أو لسببٍ نعجزُ عن تلمُّسِه.

نبكي لفرطِ حبّنا لأولادنا أو لأهالينا، لتفاهةِ الرتابةِ التي تطبعُ حياتَنا... فنتألّم لتخاذُلِنا عن التحليق، وكَسرِ انتظامنا وأُطُرنا والتفلّتِ من أثقالٍ غللنا بها أنفسَنا بأنفسِنا خوفًا من المجهول، من الظنون، من الأحكام المُسبَقة والآنيّة والمُستقبليّة.

نبكي على القيودِ التي تُكبّلُ أيدينا وتُدميها: القِيَم والعادات والأخلاقيّات التي لا يطبّقها أحدٌ فعلًا، المنسوجة من خيوطٍ رفيعة يكفي أن نُباعد بين معاصمنا لتنقطع، لكن لا نقطعها، بل نوثِق الشدَّ عليها لأنّنا جبناء جبناء جبناء، لأنّنا نخاف الناس الذين يخافوننا

أيضًا. نخشى على سمعتنا إن قالوا «مطلّق»، «متحرر»، «جريء»، فلها معنى الفلتان والعَهر في قاموس الانتظام العامّ. ويخشوننا هم للأمر نفسه. ولا يدرون ولا ندري أنّنا نتمرّغُ في بقعةِ الوحل ذاتِها. ويمرّ الوقتُ، وقِطاره بُرهة، ويذوي العمرُ وينسلُّ الندم بعد فوات الأوان.

نبكي على المرارةِ التي تعتصرنا. نتوهّم رضانا عمّا نحن عليه، عمّا لدينا، ونشيح عمّا نريده حقًا لأنّه باعتقادنا أعسر من أن نحصلَ عليه، لأنّ الظروفَ تقفُ في وجهه، ونسهو عن أنّنا نحن من رفعنا هذه الظروف أسوارًا حصينة في وجوهنا ونسينا أن نتركَ فيها فُتحة خروج.

نبكي على من انتحر، لا شفقةً عليه بل على أنفسنا. نتمنّى لو أنّ لدينا شجاعتَه لنفعلها ونرتاح، لا في إماتة الجسد، بل في نحر خوفنا، في فتح الأبواب والشبابيك وتنشُّق الحريّة، حرّيةِ القرار والمصير والعيش، حرّيةِ التخلّي عمّا يؤذينا ويُتعسُنا ويُمسك بقلوبنا ويلويها في صدورنا كلّما حاولنا الرحيل.

نبكي على السنين التي نهدرها طوعًا في البقاء مع من لا نحبّ، لأنّ هذه قِسمتنا ونصيبنا، لأنّ البقاء أسهل من التراجع، لأنّ ما فات من العمرِ أقلُّ بكثيرٍ ممّا بقيَ، ولأنّ حَرْفَ المسار محفوفٌ بالمخاطر، بأضرارٍ يهولُنا تكبّدُها، فنتكبّد خسارة حبّ حياتنا. نرتضي اختلاس مراسلته أو مهاتفته أو حتّى مضاجعته إن استطعنا، لأنّ الحصول على بعض الشيء أفضل من لا شيء البتّة، لأنّنا نهوى جلد ذاتنا، لأنّ ذلك أيسر من أن نهدم جدران التعاسة والإحباط والنفاق لما نقنع أنفسنا بأنّه أُسرة سعيدة، بيت زوجيّ... وهميّ.

نبكي على وُجودٍ يأبى أن يُعانِقَ وجودَنا، لأنَّ صِدقَ حقيقتنا أعظم من أن يُصدَّق، لأنّ التعلُّق بنا مرادفٌ للموت في مفهومِهِ،

فيُقصينا، لئلّا ترقص روحُه على أنغام روحنا، لئلّا يهيم فينا. يُقصينا، لئلّا يحيا.

نبكي، رجالًا، على من نعشقها سرًّا. نسترق التلذّذ بها كلّما انفردنا بذاتنا، نقلّب صورَها التي حفظناها في مكانٍ مخفيّ على هاتفنا، نلامس وجهها، شعرها، فانحناءات جسدها لعلّ جنوننا يحرق شفتيها، يرطّب نهديها... نكلّمها ببعض الحبّ وكثير من البذاءة، نعاتبها فيما يجرّدها خيالنا من كلّ ما عليها. نمسك بعضونا، نلاعبه، يسيل لعابنا، نسألها كيف يطيب لها أن نمتّعها... نهتاج لغرورها وصمتها، نشتمها، نهدّد بأن نلجها بقوّة... إلى أن نقذف كلّ ما حرّكته فينا صورتها الجامدة على الشاشة... صورة امرأة على بُعد رسالة أو مكالمة أو شارع أو مدينة منّا، امرأة لم تكن ولن تكون لنا يومًا لأنّنا أجبن من أن نصارحها بحبّنا لها خشية أن تواجهه بالصدّ.

نبكي على وطنٍ أُكرهنا على تركه مقابل أرض بديلة نحاول بكلّ الطرق أن نجعلها وطنًا ولا نفلح، نحاول أن نجد معنًى لأعيادها الرسميّة التي لا تعنينا، نشارك في حضور استعراضاتها، نقف بين حشودٍ من كلّ الأعراق، نرفع جميعًا الأعلام الصغيرة ونهتف أناشيد تخرج من حناجرنا لا من عمق أعماقنا؛ نحاول بكلّ صدق أن نشعر بشيء ما يشدّنا إلى شوارعها النظيفة وأشجارها المتنوّعة ومتنزّهاتها الشاسعة وأبنيتها المتشابهة ونظامها وانتظامها وأمنها وناسها الغرباء، ولكنّ قلوبنا تخذلنا لأنّها وفيّة أبدًا لجذورها، لما ومَنْ لا بديل لهم.

نبكي على اختلافنا وخروجنا عن المألوف، على عاهةٍ جسدية لم نختر أن نحملها عندما حُمِلَ بنا، على مقاييس جسدية حدّدتها الطبيعة عنّا وألصقتها بنا رغم كلّ محاولاتنا البائسة في عكسها، من

بدانة مفرطة أو نحافة سقيمة، من قصرٍ معيب أو قباحة منفّرة، من مرضٍ جِلدي أو آخر نفسيّ، حفرت جميعها هوّات داكنة في ذواتنا لا ننفكّ نسقط فيها وإن ادّعينا خلاف ذلك.

نبكي على الاتّجار بأجسادنا مقابل طموحٍ نظنّ أنّ تحقيقَه هكذا سيكون أسرع وأضمن، فنجعل من هياكل ذواتنا بضاعة بخسة على الأسرّة الفاخرة أو الوضيعة لمن يشتروننا، على طاولات مكاتبهم، على مقاعد سيّاراتهم... نركع أمام ذيولهم، نمتّعهم بِقَرَفٍ إلى أن يقذفوا في أفواهنا إفراغات نفوسهم السقيمة، ندعهم يخترقون كلّ ما فينا من ثقوب تلبيةً لأكثر نزواتهم دناءةً معتقدين أنّ وجعَ الذّل سيزول بمجرّد أن نغتسل. ونغتسل، لندرك أنّ مياه العالم كلّها لن تمسح من أرواحنا وصمة الدناسة. ونرجع إلى جحورنا بنفوسٍ خاوية، ولكن بجيوبٍ ممتلئة، بمنصبٍ مضمون، بنجاحٍ مزيّف نعرف في الصميم أنّنا لم نستحقّه سوى عن جدارتنا في سحق كرامتنا.

نبكي على ميولنا الجنسية التي تكوّنت معنا أو كوّنّاها لسببٍ فُرِض علينا. حاولنا صغارًا فهمها بلا جدوى، وكبارًا إسكاتها كلما تحرّكت فينا، إلى أن سلّمنا بها أخيرًا لكن سرًّا؛ لأنّنا إن شَهَرْناها، شَهَرَ الآخرون سيوفهم إلى نحورنا، فانجذابنا إلى من يُماثِلُنا في الجنس شواذ عن القاعدة، شوكة في خاصرة المجتمع لا بُدّ من استئصالها قبل أن يتقيّح الجرح. ولأنّنا أضعف من أن نقاوم، نرتئي الاستئصال. لكن اسألهم عن القاعدة، تراهم لا يُجيبون. سلهم عن سبب رفضهم لنا، تراهم يتلعثمون، يعتصمون بالدين، بالأعراف، بجهالتهم الأشدّ خطرًا منّا على المجتمع. وذات يومٍ، تصعقنا شحنة الشجاعة ونُعلن عن هويّتنا الحقيقية أو المُختارة، فنمسي مجرّد عَلَقٍ على هامش الحياة،

نحيا عذابات يومية، تفضي بنا إلى المرض، الإدمان، أو الانتحار، أو تُعرّضنا للنبذ والضرب والشتيمة أو حتى القتل.

نبكي على سجودنا لشيطان المخدّرات ومكوثنا طويلًا في أغوار غِواه الذي قادنا إليه هُزال فهمنا أو جسامة تباهينا بجرأتنا، أو رغبتنا في التجربة، أو اسوداد عَيشنا وخلوّه ممّا نريده. نظنّ أنّ تلك المادّة العجيبة ستمنحنا أجنحة ترتفع بنا عن واقعٍ شحّ أو اكتظّ فيه كلّ شيء، عن والدٍ لا صبر له علينا ولا وقت يصرفه معنا لأنّه يعدو ساعات وأيّامًا وسنواتٍ وراء مالٍ يخال أنّه يجمعه لمستقبلنا الباهر الذي يضيع لحظة نغرز الحقنة في الوريد أو نستنشق المسحوق الأبيض، فَنَزِلّ إلى نفقٍ لا تعرف نهايته أيّ نور، نفق الكذب والسرقة وبيع الجسد كما الروح، فنتحوّل إلى مسوخٍ شاردة، سقيمة، قاتلة أو مقتولة. ويلومنا آباؤنا على ضَلالنا بدل أن يلوموا أنفسهم على عدم توجيهنا متى وَجَب عليهم ذلك. ويلومون أمّهاتنا على سوء تربيتهنّ لنا، غير عالمين بأنّ وجودهم الغائب هو سبب تعاستهنّ وضجرهنّ ووحدتهنّ واكتئابهنّ التي جَهِدنَ في إخفائها عنّا بإحالتنا على المساعدة المنزليّة أو منازل الأصدقاء والأقارب، أو الانشغال عنّا، فأتخم كلّ ذلك معاناتنا، وثبّت فينا... ضرورة السجود.

نبكي على أمانةٍ عَهِدْنا بها بالجسد أو الكلام أو الحبر أو المال إلى من أوْهَمونا الوثوق بهم، لنكتشف لاحقًا أنّهم من أهل المعاصي الذين فرّطوا بها وألقوا بنا إلى التهلكة لمجرّد أنّنا من أخيار الناس – وربّما من أكثرهم سذاجة – ممّن لم تعكّر مساوئ الحياة صفاء نفوسهم بعد.

نبكي على ضعفنا في صدّ ربّ عملٍ متنمر أو زميلٍ خبيث، في طلبِ ما يحقّ لنا به، في أن نرفض الفِلاحة ساعاتٍ بلا مقابل، وتسخير طاقاتنا وقُدراتنا من أجل القليل والنظر إلى من هم أدنى منّا كفاءةً يتنعّمون في الكثير.

نبكي على التجاعيدِ التي بدأت تُخطّط ملامحَنا، والشيبِ الذي بدأ يُوشّع شَعْرَنا. لا يخدعنّكَ أحدٌ بأنّها راياتُ نصرٍ نرفعها مهلّلين كلّما اجتزنا إحدى محطّات العمر، بل هي وَسَماتٌ وقحةٌ تذكّرنا كلّ ثانية بغبار لحظاتٍ تناثرت من حياتنا، امّحت ونحن نمسحها عن أسطح أيّامنا من دون أن نُدرك أنّها ستتلاشى في الغد أيضًا بقايا من عمرنا المتناقص.

نبكي على انكسارنا لأبٍ كاسر أو أمٍّ سامّة، على عطاياهما المحسوبة التي لا يوفّران مناسبة إلّا يجعلاننا نرى فيها فضلًا لا نستحقّه، لأنّ مسؤولياتهما تجاهنا ممهورة بتاريخ انتهاءٍ يسري من تاريخ بلوغنا سنّ الرشد. نتمنّى لو يمكننا أن نصرخ بهما، أن نقول لهما إنّ بعض العطف جلّ ما نريده، إنّ قسوتهما لا مبرّر لها، إنّنا نعمة لا نقمة، إنّنا مكمّل لهما لا عالة.

نبكي على خفّة عقولنا. نؤنّب أولادنا مدّعين أنّهم ارتكبوا أعظم جُرم لمجرّد أنّ واحدهم أوقع كوب الحليب، أو تفوّه بألفاظٍ بذيئةٍ أو عانَدَنا. نصرخ به يأسًا من دَرَكِ روحنا الجوفاء أو نضربه لكي نُفرغ فيه إحباطاتنا، لأنّنا لا نستوعب عقله الصغير، لأنّنا ضُرِبنا ونُضرَب كلّ يومٍ بأيدي الخيبات المتواصلة التي نتلّقاها «بشهامة» لأنّ عقولنا «كبيرة»، فهذا ما أُملِيَ علينا، ونحن نَثِقُ بالإملاء ولا نؤمن بالإنشاء.

نبكي على كذبة الأكاذيب التي نحياها. نربّتُ أكتافنا مُقنعين أنفسنا بأنّ حالنا لأفضلُ حالًا من غيرنا، فنحن نسافر، ونرتاد المطاعم والمقاهي، ونشتري الثياب الباهظة، ونقتني ما نريد، ونستمتع بأيّام العطل متنقّلين بين مراكز التسوّق والمقامات الدينية والفنادق في المناطق السياحية، منساقين وراء الامتلاء الخاوي بذاك السرور المؤقت الذي حتى لو وثّقناه في صور ننشرها على مرأى الجميع، نعرف في قرارة أنفسنا أنّه لا يتخطّى عتبة الكذب. وفي حال كون المال شحيحًا، نُقنع أنفسنا بأنّ المال لا يشتري السعادة، بأنّ القناعةَ كنزٌ لا يفنى، وأنّ الأثرياء تُعساء. وفي أيّ حالٍ من الأحوال نقول: لا بأس، هكذا هي الحياة!

ونبكي أمرّ البكاء على الأقنعة التي ننزعها عندما ننام، ونضعها لحظة نصحو:

قناعُ السعادة أمام الوالدين.
قناعُ الوِفاق أمام الأولاد.
قناعُ الرضى أمام الأصدقاء.
قناعُ الراحة الماديّة أمام الجميع.
وقناعُ النِفاق أمام أنفسنا.

نبكي على سكوتنا إزاء وقاحة من نعتقدهم شركاء حياتنا، واستغلاليتهم وأنانيتهم وفجورهم وقلّة عرفانهم بما نعطيهم. يمتصّون دمَنا ونوغِلُ في السكوت، ويريدون أكثر ونوغِلُ في الخنوع. ولا نقول: كفى جشعًا واستخفافًا واستنزافًا، كفاكم! ننظر إليهم يلمعون من الخارج، بعطرهم المزيّف الذي يُطيّب عفونةَ جوفهم، وملابسهم الأنيقة التي تستر قباحةَ قوالبِهم، ونبتسم لأنّنا نملك الحق الحصري في رؤية وجوههم الحقيقية التي لا يُظهرونها سوى لنا.

نبتسم لأنّ الدمع قد جفّ من مآقينا. أنّى لنا أن نفضح الكذبة؟ إلى من نشتكي؟ من سيصدّقنا؟ فنحن لم نتذمّر يومًا. نسينا... أنّنا نلبس القناع.

في حَلْقَةِ الزمن، البداياتُ مجرّدُ نهاياتٍ مُستَأنَفة.

وهي تدخل بهو الفندق الفخم، شعرت بالعيون تنهش انسياب الأخضر المخملي يلاصق قدّها الأهيف، مبرزًا أعلى نهديها بفتحته المثلّثة التي ارتدّت إلى كتفيها في طيّتين عريضتين أطّرتا فسحة ظهرها حتى منتصفه، وتشابكتا عند تتابع الأزرار المدوّرة الصغيرة التي تقوّست حتى مؤخّرتها الشهيّة النتوء.

تقدّمت إلى جانب فريد عَبْرَ الحشد بخَفَرٍ وكِبَر نحو صالة الحفل. كان أيمن وسُميّة قد وصلا واتّخذا مقعديهما إلى الطاولة المستديرة إلى جانب ثنائي آخر تعرّفاه من طريق فريد.

تبادلوا التحيّة التي أعقبتها سُميّة بالقول إنّها تتضوّر جوعًا، وأيّدتها ورد قائلة إنّها هي أيضًا لم تتناول لقمة واحدة منذ الصباح.

دنا أيمن من وجه سُميّة، قرّب قبضة يده إلى فمه وهمس لها باسمًا:

– لم يكن من داعٍ لهذا القول السخيف أمام هذين الشخصين اللذين لم نلتقِهما سوى مرّتين من قبل.

التفتت إليه، وقالت له بشفتين مزمومتين وابتسامة متكلّفة:

– لا يُفكّر الجميع مثلك. قُلتُها بعفويّة. إنّها ليلة رأس السنة، ولا أنوي أن أقضيها مستاءة.

– مجرّد ملاحظة... سنعالجها لاحقًا.

قالها وهو يهزّ رأسه ويُبوّز شفتيه، ويُشير بإصبعه وعينيه إلى هندسة السقف في الصالة الشاسعة كمن يريد أن يترك انطباعًا بأنّ فحوى الحديث... عاديّ.

عاديًا كان تدفّق الليلة، كسواها من السهرات التي تُمضغ فيها الأحاديث عن العمل والأولاد والعاملات المنزليات وتطوّر وضع البلد المتردّي والنقاشات السياسيّة المتحيّزة ومستجدّات الفنّانات والفنّانين وكبار القوم وصغارهم.

وبين كلّ طبق وآخر، وكلّ وصلة غنائيّة وأخرى، كانت عينا ورد تقعان على هذا أو تلك، أو الاثنين معًا. لفتتها الأنيقة على الطاولة إلى يسارها. كانت خلّابة المحاسن، طويلة الأهداب والشعر، بطّن هدوء مُحيّاها حزنًا عميقًا انطبع فورًا على وجهها عندما رانت ببصرها إلى هاتف زوجها الذي سَيَّجه بقبضتيه. أماله عن نظرها، أطفأه، ووضعه من ثمّ على الطاولة. همست له بشيء وهي تبتسم بخجل وتضع يدها على كتفه. تمتم بشيء من دون أن يلتفت إليها، أشعل لفافة سجائر، رفع كوعيه إلى الطاولة، سحب نفسًا، نفض رماد اللفافة، نفخ دخانها على مهل، وأومأ برأسه إلى الطعام على صحن زوجته. ازدردت ريقها، أرخت يدها عن كتف زوجها، أمسكت بالشوكة والسكّين، ألقت بعينيها في صحنها وأكلت. كان هو أيضًا حسن الشكل، صلب العضل، ضخم التقطيع، لحيته مرسومة وكان شعره مصفّفًا بعناية.

ما باله يا ترى؟ أهو صعب المراس؟ أيشكو حزنًا ما لمرض فردٍ من عائلته أو صديق؟ أيعاني ضغوطًا في العمل؟ أم تراها من

اللجوجات الغيارى اللواتي يُنكّدن عيش أزواجهنّ؟ لكنّ لغة جسدها لا توحي بذلك...

أعادتها إلى الواقع دعوة الثنائي لها وفريدًا إلى الرقص. اعتذَرَ فريد وقال إنّ المنصّة مكتظّة وقد ينضمّان إليهما لاحقًا. قالت له:

– فلنرقص، ثمّة مساحة كافية، والأغنية جميلة.

– تعرفين أنّني لا أحبّ هذا النوع من الإيقاع يا ورد.

– ليس مهمًّا، اتبعْ إيقاعك... وإيقاعي. لسنا في مسابقة.

– لا رغبة لي. انضمّي إليهما إذا أردتِ.

لم تبرح مكانها. لم تُرِد أن تحشر نفسها بين تناغم الثنائي الآخر، فانحشر نظرها في السيّدة الخمسينيّة الماثلة قبالتها وفحش ثرائها الذي طوّق عنقها ومعصميها وأصابعها بمجوهراتٍ تكفي لسدّ حاجة ثلاث عائلات مُعوَزة. كانت تجلس جانبيًا على كرسيّها، ظهرها إلى شريكها الذي يبدو أنّه يكبرها بخمس عشرة سنة، تلفّ ساقًا على ساق، تلوّح بحذائها ذي الكعب المزدوج، ترتدي فستانًا يخنق بدانتها ويصل إلى حافة ردفَيها. بدت مُستمتعة وهي تدخّن النرجيلة بابتذال، رغم تحديقها إلى الفراغ بفتور. كانت تُلقي ببوز الأنبوبَ عند طرف فمها، تضمّه بشفتيها المنفوختين بكلّ أنواع الحقن السائلة المضخِّمة، تتشبّع بدخان التبغ المحترق، تُرخي شفتها السفلى بإغواء وهي تسحب البوز عنها، تنفخ الدخان من رئتيها وهي تمدّ عنقها أقصى ما فيها، وتعيد الكرّة من جديد.

وإذ ذاك، أوشك الليل على الانتصاف. انبرى الجميع يلبسون القبّعات والأقنعة التنكّرية الباهظة. بدأ العدّ العكسي لانتهاء عام 2015، علا الهُتاف وتبادل الجميع القبلات والأماني بعامٍ جديد سعيد، واستؤنف الرقص والشرب والاحتفاء.

بدأ المحتفلون يغادرون الصالة بُعيد الثانية فجرًا. وفيما همّت ورد وزوجها بالخروج، تخطّتها الجميلة يسبقها زوجها الضخم. ابتسمت لها. ردّت الجميلة الابتسامة بعينين خجولتين وسرّعت خطاها لتلحق بزوجها. هتفت له. أعارها نصف استدارة، توقّف وانتظرها أمام المرآة الشاهقة التي انتصبت إلى يمين باب الخروج. نظر مزهوًّا إلى انعكاسه فيها، شدّ ياقة قميصه، عدّل خصلةً من شعره انسدلت على جبينه، وتابع سيره عندما أصبحت على مقربة منه.

شعرت ورد بالشفقة عليها.

أهكذا يستقبلان العام الجديد؟

* * *

لكنّه عامٌ ككلّ الأعوام، قد نستقبله بسعادةٍ عازمين على إنجاز كلّ ما أجّلنا فعله العام الفائت، ومُتّخذين قرارات مصيرية نبدأ بتنفيذها في الشهر الأول من السنة لنعدل عنها في الأشهر الباقية.

قد نستقبله مُصفّقين للحياة مُبتهلين، ذلك أنّ نِعَمَها علينا كثيرة، أو يائسين بروحٍ لم تعد تعرف سوى الفتور طعمًا، وجسدٍ تآخى والألم أو الجوع أو البرد أو الكدمات.

قد نستقبله بتجديد عهود الحبّ بصدقٍ لمن يشاركنا حياتنا، أو بزَيفٍ لا بُدّ منه لاستمرارية هذه الحياة؛ بالكدّ في البحث عن هذا السراب، أو في عدم السعي إليه أساسًا لأنّنا لا نؤمن بوجوده ببساطة.

وقد نستقبله بلباس النوم متمدّدين على الأرائك أو الأسرّة نقلّب صفحات الفايسبوك والإنستغرام التي تغصّ بصور التعساء المبتسمين وهم يحتفلون مرتدين الأقنعة الصحيحة مرّة واحدة في عامهم هذا؛ أو نتنقّل بين قنوات التلفاز؛ أو نسابق أنفسنا في لعبتنا

الإلكترونية المعتادة على هاتفنا؛ أو نأوي إلى النوم باكرًا، فما حلول السنة الجديدة إلّا تكَرارٌ لسابقتها، إلّا يومٌ جديدٌ يبدأ بانتهاء آخر.

* * *

في السيّارة، استمع فريد بصمتٍ إلى الموسيقا الكلاسيكيّة وهو يقود. أسندت ورد رأسها إلى زجاج النافذة، ووجنتها إلى قبضة يدها وسرّحت نظرها في مدى الطريق أمامها.

لم تكن تصغي، ولم تُـرِدِ الكلام. أرادت أن تعاتبه على عدم مراقصتها طوال السهرة؛ لكنّها تفادت مجادلته لأنّها لم تخرج منها يومًا ظافرة رغم حججها الدامغة، ولمعرفتها أنّها لن تُفضي إلى نتيجة. فمتى انغرست فينا قناعاتنا، يُمسي تطعيمها بغرسات الآخرين أمرًا مستحيلًا.

أخذ ذهنها يدور في دوّامته، يغربل خيباتها ويبرّرها، ويلوك السؤال نفسه:

ما نفع التهذيب والذكاء والوسامة والوقار ما لم تُقرَن بالاهتمام؟ ذاك الاهتمام النابع من الحبّ، من سعادتنا في إسعاد الآخر، ذاك الاهتمام الذي تبرق له أعيننا، وتثب له أرواحنا فرحًا لمعرفتنا أنّ الآخر لا ينتظر منّا إشارة ليُدرك ما نحتاج إليه بل يلمسه إحساسًا.

كان اهتمام فريد بها مُتمّمًا في نظره، مُعدَمًا في نظرها.

لم يفاجئها يومًا باتّصالٍ على حين غفلة ليقول إنّه يشتهيها، إنّه يريدها بحرارة، وإنّهما على موعدٍ مع اللذّة ليلًا.

لم يباغتها يومًا برسالةٍ هاتفية يطلب إليها أن تستعدّ، فقد حجز طاولة في مطعمٍ جديدٍ ما.

لم يسعَ يومًا إلى الاحتفاء بها، أو على الأقل بحبه المزعوم لها، بالتنسيق سرًّا مع صديقاتها في عيد ميلادها أو في مناسبة ما.

كان يكره العفويّة لأنّها مُفاجِئة، وهو لا يحبّ المفاجآت.

كان فريد جامدًا قليلَ التعبير، كلاسيكيًا ومنضبطًا أكثر من اللازم. كلّ حركاته مُدَوزَنة. كلّ ألفاظه مدروسة. وأحكامه مُطلَقة لا تقبل الجدال:

في المجتمع، لا يجوز للمرأة الراقية أن تقهقه. لا يجوز أن تعانق زوجها، أو أن تشبك يده أو تقبّله في حضرة الآخرين. لا يجوز أن تطلب من الطعام ما لا يؤكل بالشُّوَك والسكاكين، فالبيتزا ممنوعة، والشطائر ممنوعة، ومتعة البساطة ممنوعة.

وفي البيت، لا يجوز أن تُظهر حميميّة مفرطة لزوجها أمام أولادها. لا يجوز أن تتسكّع في لباس النوم على هواها، لا يجوز أن تجلس ومساعِدَتَها إلى الطاولة نفسها، وكأنّ المساواة عارٌ على الإنسانيّة.

وفي السرير، لا يجوز أن تتأوّه بصوتٍ عالٍ كأنّها مومس. لا يجوز أن تتلفظّ بالكلام البذيء، ولا أن تطلب سماع الفاحش منه. لا يجوز أن تُجرّب وضعيّات جديدة أو أن تُطوّر أساليبها الجنسيّة لأنّها من اختصاص العاهرات في الأفلام الإباحيّة، وعلى المرأة أن تحافظ على رصانتها ورقّتها حتّى في الجنس.

لا يجوز ولا يجوز ولا يجوز.

يبدأ نهاراته بالنَسَقِ نفسه كلَّ يومٍ من كلِّ شهرٍ من كلِّ سنة. يُخصّص وقتًا للعائلة ووقتًا للقراءة ووقتًا للتخالط الاجتماعي في اليوم المحدّد له من كلّ أسبوعٍ من كلِّ شهرٍ من كلِّ سنة. لا يحيد عن هذا اليوم أو ذاك، بل يُسقطه ببساطة متى خالَفَ انتظامه.

يرتّب ملابسه، بالنوع، وكلّ نوع باللون. لا يقتني من الأشياء ما لا يلزمه. لا يرتدي من اللباس ما راج، بل ما هو تقليدي. وإن لم يكن ينسى مناسبةً تخصّها أو تخصّهما، فإنّ هداياه، وهي ثمينة كلّها، كانت باهتة، يمكن استباق فحواها ومواعيدها بالدقيقة والثواني.

* * *

كان فريد أبًا مثاليًا ورجلًا نبيلًا. ولكن...

مَن تُعطِه عليكَ سُلطانًا، استباحك.

كانت ورد قد قرّرت أن تأخذ يوم إجازة لهذا الأسبوع، فقد ملّت من شكل شعرها، وأرادت أن تولي نفسها بعض الاهتمام. رتّبت مع والدها أمر اصطحاب ابنتيها من المدرسة، واتّصلت ببشرى لتحجز لها جلسة طويلة من العناية الكاملة في صالونها. كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا. لا يزال لديها متّسع من الوقت قبل الموعد عند الثالثة عصرًا. انتهزت الفرصة لتناول الغداء برفقة لميا. أرسلت إليها رسالة نصيّة. توافقتا على اللقاء في مطعم لبناني في شارع مار مخايل، واقترحت عليها لميا أن تهاتف فدا للانضمام إليهما خصوصًا أنّ المقهى الذي تعمل فيه على مقربة من المطعم.

حاولت فدا التهرّب من هذا اللقاء على مدى شهور منذ مصادفتها ورد شتاءً. لكنّ ورد أصرّت عليها قائلةً إنّها لن تقبل تردّدها وإنّ شمس هذا اليوم الربيعي تدعو إلى اللقاء المنتظر. فكّرت أنّها لا تستطيع التهرّب منهما إلى ما لا نهاية. وقرّرت، بعد تنازع طويل، أن تنضمّ إليهما.

عند الثانية عشرة والنصف، وقت استراحتها، توجّهت فدا مشيًا إلى المطعم حيث كانتا. وإذ هي على بُعد خطوات من اللوحة

التي ارتفع عليها اسمه، رمت بنظرة إلى إحدى واجهات المحالّ إلى يسارها. تمهّلت الخطى وتوقّفت.

واجَهَتها هيئتها. فتحت الهيئة فمها ضاحكة، سخرت منها وهي تشير إليها بإصبعها وتصفّق على فخذها: «انظري إلينا... إلى منظرنا الرثّ، من المؤكّد أنّ صديقتينا ستهزآن بنا في سرّهما، وسنكون حديثهما على مدى شهر! فلنعد أدراجنا! فلنختلق الأعذار كما في كلّ مرّة! نحن منبوذتان منذ أن وُلِدنا ولا يُمكننا تغيير قَدَرِنا! المجتمع ليس لنا! نحن مجرّد جرذين!».

أطرقت بصرها خائبة. أمسكت بياقة سترتها الجينز التي تلبسها منذ سنوات ونظرت إلى نفسها، إلى يديها، إلى طلاء أظافرها المتشقّق، إلى جسدها. تلمّست بحُرقة وجنتها الجافّة، فأطراف شعرها الكستنائي المتقصّفة. وفي لحظة قوّة، انتصبت، نظرت مباشرةً في عين الهيئة، عدّلت تقوّس كتفيها، شدّت بطرفَي سترتها إلى أسفل، وقالت لها:

«لستُ خَجِلة! لن أنكسر لكِ! لا، أنا لستُ جرذًا! لستُ جرذًا!».

جمدت الهيئة واختفت فجأة. ابتسمت فدا لانتصارها على شيطانها، ودخلت المطعم.

أرشدها النادل إلى الباحة الخارجيّة، حيث كانت صديقتاها في انتظارها.

هرعت إليها لميا وتعانقتا باكيتين. وقفت ورد وأسرعت ناحيتهما:

– أرجوكما! لا تحوّلا كلّ هذا السرور إلى مأساة!

وما كان منها إلّا أن حوّقتهما بذراعيها وشاركتهما في البكاء.

– إنّها دموع فرح على الأقلّ!

قالتها فدا، وهي تمسح وجنتيها باسمة.

جلسن تحت الشمس تظلّلهن ذكريات الماضي. تذكّرن أيّام المدرسة وسماجة وسام الذي كان ينقف قلم الرصاص من طرف الطاولة إلى ظهر الآنسة زلفا وهي تكتب على اللوح، فيهلس الصفّ ضحكًا، وتستدير بعصبيّة يهتزّ لها قرط أذنيها وكأنّه الثريّا، تؤنّب الجميع بلكنتها الفرنسيّة الرنّانة وتهدّدهم بإيقاف الحصّة ما لم ينطقوا باسم الجاني. وكم طريفًا كان الأستاذ حلمي، أستاذ القراءة العربية، بشَعره الأجعد المنفوش ونظّارته التي كانت تستقرّ عند أرنبة أنفه، عندما ردّد ذات مرّة قصيدة للشاعر الياس أبو شبكة وكأنّه في مسرحيّة، متنقّلًا في ممرّات الغرفة بين الطاولات شابكًا يديه خلف ظهره. كان قد تلاها بشجن عَـذْبٍ ألقى على الصفّ سلامًا دافئًا تجانَسَ مع سكينة الضباب يومها ورنين المطر على الزجاج، فغفت زينة مُتّكئة بخدّها على راحة يدها. تنبّه لها الأستاذ حلمي وتابع الإلقاء بشبه همس:

مَن يصرفِ العَمْرَ على المُخملِ ولا يــذوقُ الـبـؤسَ فـي الأوّلِ
ولا الأســـى فـــي مَـــخــدعٍ مُـقـفـلِ
لـن يـعـرفَ الـعُـمـرَ شُـعـاع الإلـه ولــن يــرى آمــالَــه فــي رؤاه
بــل عــالَــمًــا يَــخْــبِــطُ فــي مَــهْــزَلَــهْ

وعندما اقترب أكثر من طاولة زينة، بعد أن وقّت انتهاء القصيدة ببلوغها، رفع صوته مفخّمًا الكلمة الأخيرة منها ونقر طاولتها بقوّة ممازحًا، فقفزت زينة من مقعدها تناجي الأنبياء وجميع القدّيسين وقالت له: «وِقِـف قلبي يا أستاذ!»، فانفجر الجميع ضاحكين وهو منهم.

تذكّرن كيف كانت مريم وأمل تتواطآن على دخول الحمّام مدّعيتَين أنّ أمل تشعر بوعكة ومن الأفضل أن تُسرعا إلى الحمّام قبل

أن يسبح الصفّ في بركةٍ من القيء، فتقرف مدام جنان وتمنحهما الإذن بالخروج، وتمشي أمل بألمٍ وهي تحني ظهرها وتعصر معدتها بيديها تتأبّطها مريم لئلا تدوخ وتقع، لتعودا بعد عشر دقائق وأمل بكامل نشاطها تفوح منهما رائحة عطر مفرطة تغطّي رائحة لفافة التبغ التي تشاركتا فيها حتّى النَفَس الأخير.

تناولن الطعام بمتعة كبيرة فيما انتقلن إلى حاضرهن ومستجدّاتهن التي اقتضبت فدا في توصيفها ما أمكن. وفيما مسحت العرق عن جبينها ورقبتها للمرّة العاشرة منذ وصولها، علّقت لميا قائلة إنّ السبب ربّما عُزِيَ إلى ارتدائها السترة وإنّ من الحريّ بها أن تخلعها ما دامت ترتدي بلوزة تحتها، أو يُمكنهنّ الانتقال إلى الصالة الداخليّة المبرّدة إن هي شاءت.

رنّ هاتف فدا ليُنقذها من اختلاق ردّ مقنع.

وَجِلَتْ، وأجابت بسرعة وهي تَخفِض معدّل الصوت في جهازها:

– أين أنتِ يا قحبة؟ جئتُ إلى المقهى وقالوا إنّك خرجتِ! أين أنتِ!؟

قالها الصوت الملطّخ بالشراسة واللؤم ولكن المنخفض على غير عادة، بينما النادل يقترب من طاولتهنّ ويسألهنّ إن كنّ يحتجنَ إلى أيّ شيء.

سأل المتّصل من جديد:

– صوت من هذا؟

أظلمت ملامحها، ونهضت عن كرسيّها.

استغربت لميا سلوكها. نظرت إلى ورد عاقدةً حاجبيها ومحرّكة شفتيها بلا صوت، متسائلة عمّا يحدث.

ابتعدت فدا عن الطاولة، وأدارت ظهرها لصديقتيها.

قالت له:

– أنا في طريقي. سأصل في ربع ساعة. خرجتُ لأشتري دواءً من الصيدليّة.

أجابها:

– اشتري الكثير إذن، ستحتاجين إليه!

رجعت فدا مُسرعة إلى الطاولة والارتباك يعلو مُحيّاها. تناولت حقيبتها واستأذنت صديقتيها في الذهاب. قالت بصوتٍ مخنوق إنّ المتّصل مدير المقهى وعليها العودة فورًا لأنّ المقهى عجّ بالناس فجأة. لوّحت لهما مودّعة بيدٍ مرتجفة وانطلقت من دون تقبيلهما، ثمّ تذكّرت أنّها لم تدفع حصّتها من ثمن الوجبة. رجعت، وسحبت محفظتها من حقيبتها. تلعثمت في كلامها وهي تنظر إلى الأسعار في قائمة الطعام. ثنتها ورد ولميا وقالتا إنّ الطعام على حسابهما وإنّ من الأفضل لها أن تذهب فمن الواضح أنّها على عجلة.

شكرتهما وهمّت بالمغادرة.

مرّت بالصيدليّة. اشترت دواءً للأطفال وتوجّهت عَدْوًا إلى المقهى. وصلته في غضون عشرين دقيقة.

كان أشرف ينتظرها عند الاستقبال. نظر إلى ساعة يده وهي تدخل.

حيّته بحركة من رأسها.

اقترب منها، ادّعى تقبيلها، أمسكها من معصمها ولوى يدها خلف ظهرها.

أنّت صمتًا من الألم.

هَمَسَ في أذنها ضاغطًا بذراعه أسفل ظهرها:

– في المرّة المقبلة، إيّاكِ والخروج من دون إعلامي.

تصنّعت الابتسام، هزّت رأسها، ومالت إليه، قليلا إذ تمزّقت وجعًا من ضغط ذراعه على فقاقيع الحروق التي امتلأت قيحًا وماءً بسبب لفافات السجائر التي أطفأها على جلدها قبل أيّام، لأنّها ابتسمت لصديقه عندما امتدح نكهة الأطباق التي أعدّتها بمناسبة دعوة أشرف له.

قال وهو يُرخي يدها:

– حسابُكِ الليلة! عودي إلى عملك الآن!

وغادَرَ، منتشلًا منها نَزْرَ الفرحة التي اعترتها هُنيهات.

* * *

بعد الغداء، توجّهت ورد إلى موعدها. قضت ثلاث ساعات في صالون بشرى افتتحتها بجلسة تدليك. سلّمت من ثمّ شعرها للمصفّف الذي شذّب أطرافه وملّسه، وغيّرت عاملة التجميل لون طلاء أظافرها إلى الزهري الفاتح بما يتلاءم وألوان الربيع.

إلى جانبها جلست سيّدتان استفاضت إحداهما في تقييمها لكلّ شيء، ومحاولتها تعيير كلّ ما جاء عن الأخرى، من ضرورة إبدالها طناجر التيفال بطناجر من سيراميك، إلى مقارنات حاسمة بين طبيب أطفالها وطبيب التجميل وأطبّاء آخرين، إلى التشديد على أهميّة المدرسة التي يرتادها أولادها وجدّية منهجها الصارم والتنكيل بالمدارس الأخرى وتساهلها، إلى التشهير بهذه الصديقة وأساليبها في تربية أولادها، وامتداح أخرى.

ضحكت ورد جدًا في سرّها:

لِمَ يحاول بعض الناس على الدوام أن يُظهروا للآخرين أنّهم الأشطر، الأفهم، الأسبق؟

لم لا يتلقّون كلامنا ببساطته، ويدركون أنّ مبادلتهم أطراف الحديث تعني مشاركتهم في بعضٍ من ذواتنا، من خبراتنا وتجاربنا، أنّنا بفعلنا هذا نغذّي تلك الطاقة الخفيّة بيننا، ونضمن استمرارها ما بين أخذٍ وعطاء بلا أثمان؟

لِمَ يعتقدون أنّنا نُمسك بسِجلٍّ ندوّن فيه أقوالهم ونضع عليها علامات تقييم، فيما نحن نتناول هذا الموضوع أو ذاك سياقيًا وليس لمنافستهم أو التذاكي عليهم؟

لِمَ لا يسعهم فهم أنّنا لا نكترث لعدد بطاقاتهم المصرفيّة وسقف الإنفاق العالي فيها، ولا إن اشتروا ملابسهم من أسواق بيروت الباهظة، أو تسلّلوا خلسة إلى السوق الشعبي لشرائها؛ وأنّ الجواهر الثمينة التي اشتروها لأنفسهم أو لمّحوا إلى أزواجهم برغبتهم في اقتنائها، وقالوا إنّهم تلقّوها مفاجأة منهم، لا تعنينا البتّة؟

لِمَ يخالون أنّنا نبالي بالنادي الليلي الذي سهروا فيه، وتمكّنوا من دخوله بشكل استثنائي، لأنّه حكر على النخبة، ما يعني أنّهم أصبحوا منها؟

ومن قال لهم إنّ صداقتَهم لعائلة هذا السياسي أو ذاك، أو هذه الشخصية المعروفة أو تلك، ترفع من شأنهم أو من مستوى حديثهم؟ أو إنّ شكل قالب الحلوى وعدد طبقاته وطعمه ولونه، الذي أعدّه لعيد ميلادهم ذاك المتجر الكبير الذي يقصده كلّ المشاهير، يدخل من ضمن اهتمامنا بهم؟ ألا يسعهم الحديث في أمورٍ أعمق؟

ربّما كانت الأعماق غريبة عنهم، لأنّهم من أَكَلَةِ القشور التي تُشبعهم حتّى التخمة، فيُمسي تناولُهم اللبّ أمرًا مستحيلًا.

* * *

أمَلت ورد من العاملة الإسراع ما أمكن في إنجاز الطلاء. شكرتها بعد أن انتهت، تركت لها إكراميّة سخيّة، توجّهت إلى مكتب بشرى لتودّعها، ورحلت مسرورة.

أنعشها كلّ هذا التدليل الذي لم يقف عند انتهاء الموعد، بل طفح وفاض طوال فترة المساء التي صرفتها عند والديها.

ألهذا يا تُرى تبكي المرأة عندما تخرج من بيت أبيها يوم عرسها؟ ألإدراكها أنّها لن تحصل على هذا الحبّ اللامشروط إلّا في كَنَفِه؟

التمست منها ابنتاها المبيت لدى جدّيهما بما أنّه يوم الجمعة، فامتثلت لرغبتهما ونبّهتهما ألّا تُطيلا السهر. ابتسمت والدتها، وقالت لها إنّ هذه الأنظمة لا تنطبق على بيتها. قبّلت الجميع ضاحكة وانصرفت.

* * *

ببلوغها منزلها، رأت فريدًا على أعقابها. ترجّلت من السيّارة، حيّته بابتسامتها المُحبَّبة وبحركةٍ من يدها. كانت ترتدي بلوزة سوداء ضيّقة قصيرة الكمّ وتنّورة بيضاء قصيرة وحذاءً رياضيًا مسطّحًا. بدت كأنّها في العشرين من عمرها بجسمها النحيف وساقيها الطويلتين المشدودتين وتسريحة شعرها غير المعتادة.

قال فريد وهو يخرج من سيّارته:

– تبدين... جميلة كمراهقة!

– شكرًا حبيبي! التغيير مفيد من وقتٍ إلى آخر.

دخلا. لمحت بريقًا غير مألوف في عينيه. اقترحت عليه تناول النبيذ والجلوس في الخارج. أضافت أنّها ترغب جدًّا في التدخين.

قال إنّه سيستحمّ وسيوافيها لاحقًا. لدهشتها، لم يعلّق كعادته على أمر اللفافة بنهْره لها أن أقلعي عنها.

سكبت لنفسها نبيذًا ورديًا وتوجّهت إلى الشرفة. ابتسمت للطبيعة وضوع زهرها المتفتّح حديثًا. بدا الليل ثقيلًا وكأنّه يستريح، تُدغدغ سكونه هسهسة الصراصير، وحفيف الشجر الذي تمايل مع رِفق النسيم.

على غير عادته، لم يُطِل فريد الاستحمام. خرج بعد نصف ساعة، واقترح عليها الدخول قائلًا إنّه يودّ النوم. ففعلت. وما إن خرجت من الحمام بعد أن اغتسلت، حتى مدّ بيده إليها عن السرير.

قال:

– لا داعي لقميص النوم.

ابتهجت روحها. فقد مضت أسابيع من دون أن يمارسا أيّ نوعٍ من الحميميّة.

استلقت إلى جانبه ملتفّة بمنشفتها. عانقها من الجانب. امتصّ فمها. أبعد المنشفة عنها وألصق جسمه العاري بها. أمسك بيدها لتداعب قضيبه. استلقى من ثمّ على ظهره، وطلب إليها أن تمتصّ عضوه، ففعلت. شدّ مؤخّرتها وعلّق على مهارتها في إثارته. رفعها إليه، مدّدها تحته، جثم فوقها، بسط كفّيه على السرير إلى جانبيها وولجها. رفعت يديها إليه تلامس صدره، عانقت رقبته واعتدلت قليلًا لكي تتمكّن من بلوغ شفتيه. قبّلها مفتوح العينين بشفتين شبه مزمومتين وابتعد عنها. رفع جذعه، أمسك بساقيها من كاحليها، وتحرّك داخلها إلى أن قذف برضًى.

قال وهو يمسح عضوه ويتوجّه إلى الحمام ليغتسل:

– استمتعتُ جدًّا!

ابتسمت.

خرج بعد ربع ساعة وتمدّد من جديد، قال:

– حان دورك.

فتحت له ساقيها. داعب فرجها بكلّ أصابعه صعودًا ونزولًا من دون أن يصيب نقاط إثارتها. لم تقل شيئًا. وضعت يدها فوق يده، وجّهت حركتها دائريًا عند بظرها، واعتصرت نهديها وحلمتيها باليد الأخرى. أحسّت بيده تتراخى. التفتت إليه ورأت عينيه تجهدان للبقاء مفتوحتَين.

ها هي كتلة النار تحرق صدرها ثانيةً.

تعذّر عليها الاستمتاع بأيّ لذّة.

طلبت إليه التوقف.

سألها عن السبب.

تذرّعت بأنّ جلسة التدليك والنبيذ جعلاها تسترخي وقد لا تنتشي بسرعة.

توقّف، ونام على الفور.

لفّت نفسها بالمنشفة من جديد وغفت على أشواك كذبتها.

* * *

كان فريد أبًا مثاليًا ورجلًا نبيلًا، لكنّه كان زوجًا فاشلًا جدًّا.

وهي، كانت هي محطّ حسد الجميع.

تمنّى كلّ من عرفوها عيش حياتها، لكنّهم لم يعرفوا أنّها من الحياة خَلَت.

لم يعرفوا أنّها لبوةٌ في قفص، أنّ وحدتها كانت قاتلة، أنّ بيتها المحشوّ بأغلى أنواع الأثاث كان شاغرًا، أنّ كلّ ما يدخل روحها، ينتهي في هوّة سوداء مثقوبة.

«فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ
وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)»
«فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ
الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)»

سورة الروم

ما إن رجعت العائلة إلى المنزل بعد زيارة والدي أيمن، حتى انبرت شُميّة تقوم بالمعتاد.

أشرفت على مراجعة أولادها لفروضهم المدرسية، أعدّت لهم العشاء، ساعدتهم في الاستحمام والتهيّؤ للنوم، قرأت قصّة لابنتها ذات السنوات الأربع، وحرصت على أن يطالع ولداها الأكبر بنفسيهما. بعد أن انتهوا، عانقتهم، قبّلتهم، تمنّت لهم ليلة هانئة وتوجّهت إلى المطبخ. غسلت الفواكه والخُضَر لتزوّدهم بها صباحًا مع الشطائر، جالت في المنزل لتلتقط ما تناثر في أرجائه من لُعَب صغيرتها، وترتّب ما رُفِع من مكانه ولم يُردّ إليه.

كان أيمن في غرفة الجلوس يتنقّل بين هاتفه والتلفاز ودفتر مواعيد العمليّات ودفاتر حساباته، يقضم أطراف أظفاره، يتأفّف، ويحكّ رأسه بعصبيّة.

حاولت مساعدتها المنزليّة معاونتها.

– شكرًا، اليوم يوم عطلتكِ، ولستِ مُضطرّة إلى العمل. سأقوم بذلك بنفسي.

تدخّل أيمن بعد دخول المساعدة غرفتها:

– فلتساعدك. ألا ندفع لها المال لهذا الهدف؟

– نحن لا نعمل يوم العطلة، وهذا المبدأ ينسحب عليها أيضًا... ما بك؟ أراك متوتّرًا.

– رأسي مشوّش لكثرة ما عليّ فعله، ولما حَدَث اليوم.

– استرح إذًا. أتودّ أن أُعدّ لك شطيرة؟

– لا.

بعد ساعات من السباق المنزلي، استحمّت، تربّعت على سريرها، وافترشته بكومة الاختبارات السريعة التي قام بها طلّابها الأسبوع الماضي.

فتح أيمن باب الغرفة كالح الوجه. وقف هناك وقال:

– بالمناسبة، هلّا قُلتِ لي ما معنى خوضكِ نقاش هذا اليوم؟

– هلّا أجّلنا الحديث من فضلِك؟

قالتها بصوت هادئ وهي لا تزال مستغرقة في أوراقها.

– أجيبيني.

نظرت إليه وقطّبت حاجبيها تلتمسه أن:

– أرجوك يا أيمن، ألا ترى أنّني منهمكة في عملي؟

– سؤالي أهمّ! أنا أهمّ!

– ما الداعي إلى هذا الكلام الآن؟ وما قصدكَ بأهمّ؟

– أقصد ما قصدت. في أيّ حال، فإنّ من الأجدر بكِ ألّا تعاكسيني الرأي في نقاشات مماثلة.

– أنا لستُ صنمًا، والتعبير عن رأيي أبسط حقوقي.

– لا يكون كذلك ما لم يتوافق ورأيي! ولا يكون كذلك إن كان تشجيعكِ لها خطأً!

أخذ صرير صوته يزداد حِدّة.

ماذا أردتني أن أقول لشقيقتك؟ نعم، أخوك محقّ، ستجلبين العار على العائلة بزواجك المدني بكافر، سنلعن خطوتك هذه إن أقدمتِ عليها، سنُقفل بابنا في وجهك، سننبذكِ!

– وهذا ما سيحدث إن هي تجرّأت وفَعَلَتها!

– بربّك يا أيمن، دع أختك وشأنها! يهولني كلّ هذا التحجّر من شخصٍ بمستوى عِلْمِك! كيف لك أن تحكم على شابٍّ لمجرّد انتمائه الديني؟ كيف لك أن تَحُدّ كيانًا كاملًا في طريقة عبادته؟ إلهه إلهنا، وشرائعه من شرائعنا. وهو ليس متديّنًا في أيّ حال.

– هو ليس مسلمًا وانتهينا! لن أسمح لها بأن تُلطّخ شرف العائلة! يكفي رفضها الحجاب!

– أتراها ترتكب جُرمًا لا سمح الله؟ أتراها تتعاطى الممنوعات؟ أتراها فاسقة ماجنة؟ من أين أتيت بمفهومك هذا عن الشرف؟ هذه حياتها ولها حرّية اختيار من ترغب في صرفها معه.

– لا تحاولي إقناعي بمثاليّاتكِ السامية وتوجّهاتكِ الانفتاحيّة وآرائكِ المتفلسفة البعيدة عن الواقع، فلن أقتنع.

هَمّ بالخروج ثمّ عاد. واجهها ملوّحًا بإصبعه أمامها قائلًا:

– ويحٌ لكِ إن تناهى لي أنّكِ وقفت في صفّ شقيقتي مرّة أخرى! أنا زوجك، ومن واجبك تأييد أيّ موقف أتّخذه وأيّ رأيٍ أُبديه!

– أنت تعرف أنّني لا أؤيّد الخطأ.

خفَضَ إصبعه شاقًّا به الهواء، ونَقَرَ به جبهتها:

– ستؤيّدينه رغمًا عنكِ! ما دام اسمكِ على خانتي، فستلتزمين ما أقول!

رفعت صوتها:

– هذا لا يجعل منّي عبدة لك!

– عبدة وأكثر! ستلتزمين ما أقول!

– أرجوك لا تقلّل من احترامي!

– انتهى النقاش!

– سئمتُ يا أيمن... سئمت الشِجار... سئمتُ تبخيسك المتواصل لي!

– أنتِ من جلبتِ الإهانة على نفسكِ!

– أنت تُدهشني يومًا بعد يوم!

– هذا أنا! أنا الرجل في هذا البيت! وإن كان بيتي لا يناسبكِ، فارجعي إلى بيت أبيكِ!

– سأرجع إن بقيتَ هكذا! أنا لم أتزوّج لأُذَلّ!

لكزها في كتفها، وقال مُشمئزًا:

– اعفيني يا امرأة! ساذجةٌ بلهاء! لا أدري كيف حصّلتِ تلك الدكتوراه!

تأهّبت من وضعيّة جلوسها، وأحكمت الإمساك بمعصمه:

– إيّاكَ أن تفعل ذلك مجدّدًا!

أفلتَ يده منها، ورشَقَ ذراعها بخشونة وهو يغادر.

قالت دامعة بصوت مخنوق:

– والله إنّكَ لعديم الأخلاق...

توقّف، استدار، انطلق ناحيتها وصفعها على وجنتها بقوّة اهتزّت لها روحها. قال:

– فاجرةٌ سافلة!

ثمّ بعثر أوراقها بانفعالٍ في الهواء وعلى الأرض... وخَرَج.

رفعت يدها إلى خدّها. أرادت أن تتحلّل، أن تنشقّ الأرض وتبتلعها.

تخدّرت. اختنقت بدمعٍ لم يجد للمرّة الأولى سبيله إلى عينيها. تراءت أمامها كلّ تلك المرّات التي اقتاد فيها روحها الرقيقة

إلى مقصلة محكمته، وعجزت عن الدفاع عن نفسها سوى بالانكماش والانزواء أو الصراخ والعويل وخبط الأبواب بعنف.

كرهت روحها الضعيفة. شتمتها. قطّعتها باللَوم.

بصقت في وجه جُبنِها، ووجهَي والديها على تربيتهما الصالحة لها، على تغذيتها منذ صِغَرها بحُسن الأخلاق، بالإباء الذي ألزمها الترفّع عن مشكلاتها الزوجية وتخطّيها وعَذْرها وكتمانها حفاظًا على حُرمة بيتها المقدّسة.

أفنت يدها عضًّا على ستّ عشرة سنة من السكوت والقبول والرضوخ أيقظتها أخيرًا صفعة نُقِشَت عليها كلّ انكساراتها.

أيقنت أنّها ساذجة بلهاء فعلًا لأنّها سمحت لإبائها أن يُسوّي وجودها أرضًا.

* * *

في اليوم التالي، أفاقت على قبلة طبعها أيمن على وجهها. جلس إلى طرف السرير، أمسك بيدها وقال:

– أحبّكِ. لم أقصد ما فعلتُ أمس. كنتُ مُستاءً من أختي. غضبي كان أقوى منّي.

مسحت القبلة عن خدّها، وأجابته من دون أن تنظر إليه:

– اكتفيتُ من سماع الأسطوانة نفسها.

– شميّة، كانت مجرّد صفعة. ها أنذا أعتذر لك عنها!

– ليست المرة الأولى التي تُسيء فيها إليّ. وأنت لم تصفع وجهي، بل منزلتك عندي.

– يؤلمني أن أراكِ مستاءة هكذا. أنتِ تعرفين كمّ أحبّك. أنتِ وأولادي كلّ حياتي.

– لا تخلط بين العطف والحبّ، وبين ما تقوله وما تفعله.

- أرجوكِ أن تنسي ما حدث. سامحيني.

- قد أنسى، قد أسامح، لكنّني لن أقبل أيّ إساءة منك بعد اليوم.

- أعترف بأنّني أخطأت، لكنّ غضبي كان السبب.

- ماذا لو كنت غاضبًا وكان عليكَ أن تُجري عمليّة جراحية؟ أتقتل مريضكَ بلا قصد وتعتذر لأهله من بعدها؟

لم يُضف شيئًا، وانصرف إلى عمله.

رقدت في فراشها ساعةً تنظر إلى السقف وتفكّر.

قفزت من سريرها، نادت مساعدتها، وفعلت ما كان الأجدر بها فعله منذ سنوات.

بعدما انتهت، استعدّت قبل أن توقِظ أولادها. تبرّجت، واضطّرت إلى استعمال كلّ مساحيق الوجه وكريمات الأساس لتغطّي بها وجنتها.

ومع كلّ طبقة طمست بها أثر الأصابع، زالت عن عينيها طبقات العَمَش الذي غلّف بصيرتها كلّ تلك السنوات.

قبل أن تخرج، تركت مظروفًا لأيمن فوق حقيبتَي سفر بعثرت فيهما متاعه.

أيمن، هذه الأبيات تختصر كلّ شيء:

كمْ بنيتُ على حُبِّكَ المزعومِ آمالي
ورُحتُ أحلمُ في حِلّي وترحالي

أنّي انتصرتُ وأنّ الحبَّ ملجأُنا
وأنّك الآهُ في أنغامِ موّالي

ماذا تغيّر حتّى لم تعد رجلًا
إليه أسعى بإقبالي وإدباري

وكيفَ تهرُبُ من روحي ومن جسدي؟
وكيفَ تقصدُ تعذيبي وإهمالي؟

كمْ كنتُ في ظنّي بنتًا مغفّلةً
ومَكرُ عينيكَ لم يخطر على بالي

وكم خُدِعتُ بمن أردى شهامته
لينقُلَ الحبَّ من حالٍ إلى حالِ

هل ارتكبتُ بطيبِ القلبِ معصيةً
حتّى تُقرِّرَ تصفيدي وإغلالي؟

حضنتُ نرسيسَكَ المعتوهَ مُكرهةً
ورُحتُ أمحو بطولاتي وأبطالي

فتّش عن امرأةٍ تُغريكَ قسوتُها
وتبني مجدًا على تاريخكَ البالي

لا لن أعودَ إلى عينيكَ طائعةً
يا مَن يروقُكَ إطفائي وإشعالي

من كان مثلكَ لن ينتابَهُ ندمٌ
ولن يصبَّ دموعًا فوق أطلالي

دمّرتُ ماضيَّ كي لا ألتقيكَ به
ولم تَعُد في سباقِ العُمرِ خيّالي...

ارحل يا أيمن... ارحل وجِدْ لك امرأة ترتضي أن تكون دميةً يحرّكها مزاجك. أمّا أنا، فسيّدة.

لقد اتّصلتُ بالمحامي اليوم. سوف تصلكَ دعوى الطلاق قريبًا.

سأعود والأولاد إلى المنزل عند الثامنة مساءً. غادر قبل حلولها.

سأُعلِمهم أنّك اضطررتَ إلى السفر لأسبوعين كي تشارك في مؤتمر طبّي وسوف نتوافق بعدئذٍ على الصيغة الأنسب والأقلّ ضررًا لإبلاغهم بانفصالنا. ولا تحاول إقحام أحد في الأمر لإقناعي بالتراجع عن قراري. لن أتراجع.

شميّة

* * *

عَلِمَت سُميّة علم اليقين أنّها رمت بنفسها في رحى معركة طاحنة سوف تخرج منها بنُدبٍ دائمة، غير أنّها قرّرت خوضها، فلم تكن يدها هي التي خَطّت كلامها ذاك، بل كرامتها.

باسلة كانت في قتالها الصامت إزاء مناورات أيمن التدميريّة. استعمل هيبته ومقامه وحنكته في تصوير نفسه ضحيّةً، مستثنيًا كلّ فظاعاته، أمام عائلته وَوَسَطه وكلّ من عرفهما، فهو ليس بسكّير أو مقامر أو مُعنِّف ولا سبب يدعوها إلى هجره ما لم تكن على علاقة بعشيق ما. صدّقوه لأنّ التلاعب حرفته. اتّهمها زورًا بأنّها أمّ مهمِلة وامرأة أنانية متكلّفة متعالية منافقة، بأنّ أعمالها الأدبية وبحوثها العلمية مجرّد استنساخات محرّفة لمبدعين عالميين، بأنّها حصلت على الدكتوراه بطرقٍ ملتوية.

لم يوفّر لحظة إلّا حاول إرهابها. شنّ عليها حربًا بترسانة من أعنف أنواع الأسلحة النفسية. أسقط عليها مساوئه، استأجر متعقّبًا ليترصّدها، أخذ يراسلها على حساباتها الاجتماعية كل مرّة باسم رجل

مختلف لعلّها تقع في الفخّ، شتمها، عنّفها كلاميًا في كلّ اتّصال ورسالة أو متى تمكّن من رؤيتها ولو لحظات وجهًا لوجه. ورغم كلّ تلك الجروح، لم تكترث سميّة لبُهتانه. فقد ترفّعت عنه... كعادتها.

في اجتيازكَ كثبان الندم لبلوغ واحة الصحوة،
حذارِ من تلك الأرض الجدباء التي يسمّونها الخَيْبة.

«أن تعرفَ نفْسَكَ هو بدايةُ كلِّ حكمةٍ».

وكم نتأخّر في فهم تلك المعرفة يا أرسطو، فلا بُدّ من الهزّات لكي تضبطَ أنفسُنا توازنَها وتُسوّي طبقاتها وتصقل سطحَها بعناصرَ حملتها أمواج الحياة إليها من القيعان، ولا بُدّ من البراكين لكي تُخرِجَ أنفسُنا حُمَمَ أعماقها وتُبرّدها لئلّا ينفجرَ داخلُها، فنُدرك، مع كلّ هزّة وانفجار، أنّ حياتنا أشبه بأفعوانيّة.

نقف في مدينة الملاهي أمام هذه السكّة الحَلَقيّة العملاقة المتعرّجة، متلهّفين إلى ركوبها. تبهرنا أنوارها الوامضة وصراخ من سبقونا إليها. نضحك لشجاعتهم أو لجُبنهم، ونفكّر لوهلة في التراجع وتجربة أمر آخر نعرف مُسبقًا أنّه لن يضعنا في عين المجهول. لكن سرعان ما نبدّل آراءنا ونشدّ عزائمنا لرؤية الابتسامات العريضة على وجوه المترجّلين منها، ونُعرِض عن المتجهّمين المرتجفين، لأنّنا ننجذب بحكم الحال إلى ما يُفرحنا.

يحين دورُنا، نتّخذ المقاعد المعيّنة لنا، نُوثِقُ الحزام على صدورنا، وتخاتلنا أطيافٌ من الانفعالات المختلطة.

تُثيرنا هذه التجربة الجديدة التي نتحدّى بها إمكانياتنا. نلوّح مبتسمين لأصدقائنا الذين رفضوا ركوبها خوفًا من ركوب الخطر.

ها هي المركبة تُقلع ببطءٍ، تدور دورةً هادئة، تُهيّئنا لما سيحدث، فنستبشر خيرًا باندفاعنا. نعاين مُحيطنا من هذا العلوّ المعتدل ونُثني على جرأتنا.

تزداد السرعة رويدًا، فيتملّكنا بعض الخوف. تشدّ أيدينا على الحاجز أمامنا وتخفق قلوبنا لما ينتظرنا تاليًا. تتحوّل السرعة إلى جنونيّة، تترنّح العربة، ترتجّ على السكّة، نتمايل بحدّة من اليمين، إلى اليسار، تنقلب بنا رأسًا على عقب، ترتعد أواصرنا، تستنفر حواسّنا، نصرخ، نقهقه أو نبكي، لنلتقط من ثمّ أنفاسنا عند توقّفها لثوانٍ مع بلوغها القمّة. أخيرًا اجتزنا الاختبار! أنجزنا الأصعب! ها قد بلغنا السماء، حقّقنا الهدف، وكلّ ما حولنا وتحتنا يبدو صغيرًا وتافهًا. الآن سنُكمل ما بقي من الدرب بيُسر.

وفجأةً، تهبط العربة كصاروخٍ ناريّ، تنكمش قلوبنا، نُحملق إلى اللاشيء بعيون جاحظة، يروّعنا انعدام سيطرتنا حتى على ذواتنا، نزعق بأعلى صوت، ننادي على أمّهاتنا طلبًا للنجدة، نفكّر في من نحبّ لنبلغه تخاطُرًا خشية أن تكون هذه آخر لحظاتنا، وما تلبث السرعة أن تتباطأ، مُعلِنةً النهاية في وهلة...

نخرج مضطربين، لأنّ زلزال الانتقال من الجذل الشديد إلى الفزع الشديد صادمٌ، من أقصى الفرح إلى أقصى الحزن، من الاعتقاد بأنّ المشاعرَ التي تجيش فينا حقيقة ثابتة إلى الإدراك بأنّها متغيّرة، من الظنّ بأنّنا نتحقّق لدى بلوغنا القِمَم إلى تبدُّد هذا الوهم بمجرّد أن ترجع أقدامُنا إلى الواقع الصُلب.

وهكذا، نخرج من تجاربنا بألفِ قرارٍ وقرار، قراراتٍ تتلفّظ بها رعونة القلب تشفّيًا بحصافة العقل أو العكس، فتنطبع خطوطًا ملتويةً

على أوراق أيّامنا وتزداد اعوجاجًا مع تقدُّمنا على سكّة العمر. نحاول تقويمها لكنّها لا تطاوعنا. نحاول ضمّ ملحقات إليها فلا تُفيدنا، لأنّ الملحقات مجرّد حلولٍ مؤقّتة لبناءٍ سبق أن شُيِّد.

وتصل بنا السكّة إلى أرض الخيبة. نترجّل متلكّئين ونَشْخَص أمام هذا المدى الأجرد وعمق تصدّعاته ويباسه. نمضي بحذرٍ. نصطدم مع ذلك بالصخور المتشرذمة فيه وقد حُفِرَ عليها كلّ ما مررنا به من أحداثٍ خِلنا أنّنا تخطّيناها، غير أنّها تقبع هناك، مدموغةً بتواريخ حدوثها وكميّات الدموع التي ذرفناها بسببها، ونندم...

نندم على فرصِ عملٍ أضعناها، لأنّنا لا نريد أن نكون مرؤوسين بل أن نترأّس المراكز الإداريّة فور تخرُّجنا، لأنّ مقاماتنا أعلى من التدرّج مع المبتدئين، فنترأّس سلك العطالة سنوات وسنوات إلى أن نعترف أخيرًا بأنّنا قد أخطأنا، ونرجع إلى نقطة الصفر.

نندم على اختيارِ تخصّصٍ لا يتناسب ورغباتنا لأنّ أهالينا أَرغمونا على أن نصبح من حَمَلة الألقاب، أطبّاء ومحامين ومهندسين وضبّاطًا عسكريين، فهذه المهن رفيعة الشأن، غزيرة المردود، خلافًا لحثالة التخصّصات من رسمٍ وعزفٍ ورقصٍ وكتابةٍ وحِرَفٍ يدويّة. نمارس مِهَننا متحسّرين كلّ يوم على ما أمكن أن نكون. نُكشّرُ لنجاح كلّ من اختار دربه بنفسه وسطع، ونلوم أهالينا كلّما سنحت لنا الفرصة على حشرنا في قُمقمٍ لا مناص لنا منه.

نندم في وحدة ليالينا على أحضانٍ ضاعت بين رجال أدرنا لهم أقفيتنا بتكبُّر وتبخترنا بها يمنةً ويسرة ونحن ندفع بالباب خارجَ عالمهم، وآخرين لهثنا وراءهم واثقاتٍ بأنّهم سيكونون أفضل، فأداروا لنا ظهورهم ليبحثوا عن نِسوة أفضل. وفي بَحْثنا الشَرِه هذا، ننوء

جميعًا تحت ثقل الفراغ الذي يملأنا كلّما اختزلت كياناتنا إلى مجرّد عناصر لامرئية يخترقها عشرات الأشخاص يوميًا ولا حتّى الكسْرُ منها يشعر بنا. ونروح نشتُمُ حظوظنا العاثرة، وكلّ رجال العالم ونسائه، ونهدأ من ثمّ لنُطمئِنَ أنفسنا المشطورة ونواسيها مُردّدين قول الشابي «لا بُدّ أن يستجيب القَدَر، ولا بُدّ للقيدِ أن ينكسر» وأنّ الأفضلَ في انتظارنا لا محالة، مُتناسين أنّ اسم التفضيل هو في النهاية صيغةُ تضخيمٍ مبالغٍ فيها لا أكثر.

نندم سرًّا على اختيارنا شريك حياتنا، على شحوب تلك الحياة الملتحفةِ بضبابٍ خانق، مُلبّد بعتابٍ لا يُقال وحاجاتٍ لا تُشبَع، بحنقٍ مكبوتٍ ورغبةٍ دفينة في محو زمننا معه؛ نندم على أيّامنا المتشقّقة التي نُواصل رأب تفسّخات هيكلها بلصاقٍ مؤقّت رغم الفُتات الذي يتساقط منه يومًا إثرَ يوم. ومتى انقشع بعضُ ضبابٍ واستجمعنا قوى شجاعتنا وتلفّظنا أخيرًا بما عندنا لنقوله، نُكرَه على التحوّل إلى حِرابٍ وسيوف نحفظ بها آثار كراماتنا الباقية، إلى دروعٍ نحصّن بها دفاعاتنا لتقينا تحجُّر هذا الآخر، ورفضه الإصغاء إلينا، ووأده حقّنا الأبسط في التعبير.

نندم على اكتشافنا، بعد هذا الكرّ والفرّ ومجابهاتٍ لا طائل منها، بأننا، مهما عجنتنا الأيّام، لن نتماسك، ولن نختمر، فالكيمياء بيننا مستحيلة لكوننا بكلّ بساطة مادّتين لا تمتزجان، وأنّنا مهما حاولنا تحدّي قوانين الطبيعة بإضافة موادّ محفّزة على خليطنا، فسوف نبقى عنصرين مستقلّين غير متوالفين.

نندم على رَفْعِنا بلا دعائمَ سقفَ توقّعاتنا الذي صَمَد ما أمكن، وانهار فوق رؤوسنا فور إدراكنا حقيقة الزواج التي يُعتّم عليها

الجميع باستثناء قلّة، حقيقة أنّنا نستمتع ببعض الهيام والشغف لسنتين أو أكثر. ننجب الولد الأول، فنبتهج سنة أخرى، وتروح الرياح تهبّ بيننا خفيفة لتتحوّل إلى عواصف. ننجب الولد الثاني، وتحلّ علينا النعمة من جديد وتُلقي بوشاحها النقيّ على السخام الذي يغشى على حياتنا، ليبدأ الوشاح بالتبقّع مع كلّ صحوة تنبّه سُبات وَغْينا. ننجب الثالث لعلّنا نسدّ أبواب الرياح، ونوقظ حماسةً كانت قد خبت، فننهض بجسارة، غير أنّ الحِملَ الإضافي يُثقِلنا، وإذا بنا نتعثّر بأصغر حصاة ونتدحرج رأسًا على المنحدر وتسقط في سقطتنا عهود كثيرة كنّا قد قطعناها. نتقاذف اللوم والعتاب. نقيس الأخطاء المرتكَبة بالنِسَب المئوية وغير المئوية. نلعن الزواج وكلّ أُسُسِه، ونستحضر الدكتور زياد نجيم، ندعو له بطول العمر ونصادق على صِدقه وجرأته ونقتبس قوله إنّ «مؤسّسة الزواج مؤسّسةٌ فاشلة» ونتّخذ القرار بوجوب الانفصال الذي نرجع عنه صباح اليوم التالي، لنعود ونتّخذه على أثر كلّ شجار وخصام، متغافلين عن أنّ المؤسّسة لا تدير نفسها بنفسها، أنّ فشلها رهن من فيها، رهن صواب قراراتهم أو خطئها، وحُسن سلوكهم أو فظاعته، ووداعة نفوسهم أو تغطرسها، رهن احتضان واحدهما الآخر والنماء معًا أو التجابه والسقوط معًا. وندرك أنّ مؤسّسة الزواج ليست بفاشلة، أنّنا نحن الفاشلون. فاشلون لأننا اخترنا سلوك ذلك الدرب، لأنّنا بقينا عندما اقتضى الرحيل، لأنّنا كلّ شيء ما عدا أحرارًا، لأنّنا مجرّد بيادق على لوحة مجتمع ديني يُنكر حريّاتنا المدنيّة في اتّباع آرائنا واتّخاذ قرارتنا بناءً عليها، ويُحظر علينا غير وسيلة لها أن تُجنّبنا مآسي مستقبلية كثيرة من البقاء قسرًا أو الطلاق حكمًا. يستعجلنا الخطبة لئلا نكتشف الحقيقة ونعدل عن الزواج. وحاشا ذِكرَ المساكنة التي تثبت لنا صحّة قراراتنا أو عدمها، فهي بِدعة من بِدَع الغرب لها أن تقوّض التركيبة المجتمعية الشرقية

السليمة، وتُخلّ بأهداف القيّمين على الدين الذين يتمترسون وراء أحكام الله لكي نعلق في الشرك الأُسَري لمعرفتهم أنّ الأغلبية لن تقاوم، وإن حدث وثار بعض المتمرّدين، حجّموهم بكلّ الطرق وعسّروا عليهم تحرّرهم.

نندم على تربيتنا المتزمّتة لأولادنا وسكبهم في سبائك جاهزة بغضّ النظر عمّا إن كانت على مقاسهم أو لم تكن. نؤدّبهم متى خربشت أناملُهم رسومًا لوّنت فوضاها بياض جدران منازلنا، ونقمع تعابيرهم عن اختلاجاتهم، ونهشّم ظنونهم بأنّ تحفهم الفنّية ستروقنا. لكنّنا نستاء، ويستاؤون لاقتراف تلك الآثام، ويعتذرون لنا بأعينهم البريئة فيما نحن منهمكون في فركها بأقوى المنظّفات لأنّ جلّ همّنا الظهور أمام الغير بحلّة الأهل المثاليين، لأنّ نظرة الآخر إلينا أهمّ من نظرتنا إلى أنفسنا. وفي الأماكن العامّة، هذه المنطقة الحمراء التي تُوضع فيها هُويّاتنا الأبويّة تحت المجهر، نحاول أن نبدو على أُهْبة الاستعداد للاختبار، فنوبّخ صغارنا على كلّ صرخة يطلقونها اندهاشًا بشيء ما لفتهم، أو على اندفاعهم ناحية غريبٍ يتناول البوظة أو الفشار وطلبهم تناول شيء منهما، فنكاد نخرج من جِلْدِنا أو نذوب فيه إزاء هذا الإحراج السافر: ماذا لو ظنّ الغريب أنّنا نبخل عليهم بالطعام؟ ونواظب على وَعْظهم مع الحرص على النبرة التي يستعملها الرصينون لكي تتناهى إلى المحيطين بنا وتولِّد لديهم الانطباع بأنّنا نـؤدّي واجبنا الأبـوي على أتـمّ وجـه. ونُخـرِج كلّ ما في جُعَبِنا من ملاحظاتٍ وتعليمات راقتنا من أهالٍ آخرين، أو شاهدناها في برنامج توعية ما. ندفقها على صغارنا ونُسندها بكلّ ما نعرفه غرائزيًا، وكلّ ما قرأناه قصدًا أو عَرَضيًا. لكنّ صغارنا لا يلقون إليها أو إلينا بالًا، هم لا يبتعدون عنّا ويختفون في لمح البصر، ويركضون أمامنا بسرعة البرق

لأنّهم يتعمّدون معاكستنا، بل لأنّهم ببساطة يجدون متعة في جريانا خلفهم، في الإمساك بزمام الأمور ولو مرّة، في الاعتقاد بأنّ عفويّة أفعالهم تقرّبهم منّا أكثر.

وننذم، بعد وفاة أهالينا، على كلّ الأوقات التي قضيناها بعيدًا عنهم، هربًا من توجيهاتهم المتواصلة ومن أفكارهم المتخلّفة، من وجودهم الجاثم، من أحاديثهم المملّة، من تدخّلاتهم في حياتنا العصرية التي لا يفهمونها، من طلباتهم البسيطة واتّصالاتهم المتكرّرة للاطمئنان علينا. ونقرّر الابتعاد أكثر، إلى أقاصي الأرض، لأنّ الهجرة ستفتح لنا أبوابًا لم يحلموا بها وستُحوّل التراب تحت أقدامنا ذهبًا. لكنّنا نرجع كما رحلنا بعد أعوامٍ طالت لنزور قبرهم ونستحلفهم أن يعودوا ليومٍ فقط، لساعة، للحظة لكي نعانقهم، ونستنشق أريجهم، وندفن رؤوسنا في أحضانهم ونقبّل أياديهم ونرفعها إلى وجوهنا المبلّلة بدموع تتوسّلهم المعذرة على كلّ مرّة كرهناهم فيها سرًّا لأنّهم منعونا من فعل هذا الأمر أو ذاك، أو مواعدة هذا الشابّ أو تلك الفتاة؛ على كلّ هديّة اشتريناها لهم كيفما اتّفق أو اخترنا منها الأرخص لأنّ زوجاتنا أقنعننا بذلك أو لأنّ أزواجنا رفضوا الإسراف عليهم؛ على كلّ سنة نسينا فيها أن نكون أوّل من يخصّهم بالمعايدة في عيد ميلادهم لانشغالنا بالعمل أو بحبيب أو بأنفسنا؛ ونندم على كلّ لحظة جلسنا فيها معهم ولم نغدق عليهم أيّ عطف أو قُبَلٍ أو عناق، وكلّ فرصة واتتنا لنتمدّد بينهم في أسرّتهم كما فعلنا صغارًا ولم نفعل؛ على كلّ وجبة التهمناها ولم نشكر أمّهاتنا عليها، وكلّ طبق دفعنا به إليهنّ وتأفّفنا وامتعضنا من مذاقه أو درجة حرارته أو نوعه مطالبين فورًا بغيره، ومتى جهز نقول إنّنا شبعنا ولم نعد نرغب في شيء؛ على كلّ صرخة رفعناها في وجوههنّ لأنّهنّ لم يغسلن ملابسنا

المفضّلة بعد ولا بُدّ لنا من ارتدائها دون الكثير سواه لمناسبتنا المهمّة؛ على كلّ سباب وضغينة تمتمنا بها في ظهر آبائنا لأنّنا سئمنا اصطحابهم لنا إلى مطاعم السندويشات أو المطاعم المحلّية نفسها، لأنّهم لا يملكون ما يكفي ليشتروا لنا آخر الأحذية الرياضية الباهظة أو هواتف جديدة أو سيّارات نتباهى بها أمام أصدقائنا، لأنّهم لا يزوّدوننا بمئات الليرات لمصروفنا الأسبوعي أسوةً بهم، لأنّهم بسيطو الملبس، قليلو الثقافة، ريفيّو اللكنة، أو لأنّ العمل من الفجر إلى النجر يجعلهم حادّي الطبع، قساة القلب، عابسي الوجه. نندم لأنّنا استغللنا تفانيهم، لأنّنا لم نحبّهم قدر ما يستحقّون.

ونصحو بعد غَيبةٍ طويلة، ونندم.

«الحرّية أثمن ما في الوجود،
لذلك كان ثمنها باهظًا».

ميخائيل نعيمه

اتّصلت ورد بفِدا. أجابتها بصوتٍ مبحوح عزته إلى السعال. لم تمضِ دقيقة على تحادثهما حتّى سمعت ورد صوت أشرف يسأل من المتّصل ويأمر زوجته بأن تقطع الاتصال. اعتذرت فدا قائلة إنّها ستكلّمها لاحقًا، لكنّها لم تنتبه أنّها نسيت هاتفها مفتوحًا.

ذُعرت ورد لما وصلها، وإن غائرًا ومتقطّعًا.

عاودت الاتّصال بها مساءً. لم تُجب. حاولت بعد يومين. ما من ردّ. ظلّت تحاول على مدى أسبوع، بلا جدوى.

وفي اليوم الأول من الأسبوع التالي، توجّهت إلى مكان عمل فدا للاستعلام عن عنوان منزلها، فزوّدوها بعنوان منزل والدتها. أسرعت إليه. ركنت سيّارتها في موقف عمومي، وسارت باضطراب بين الأزقّة الضيّقة الموحِلة التي تبعثرت فيها القمامة واصطفّت إلى جانبيها سيّارات قديمة الطراز صدِئة، جانَبَت بيوتًا أسمنتية متراصّة مُهمَلة متشقّقة الجدران.

دخلت البناية وصعدت السلالم المتكسّرة إلى الطابق الثالث. طرقت الباب. لم يفتح أحد. رنّت الجرس مرّتين. لا جواب. تنهّدت

خائبة. استدارت لترحل. وما إن هبطت بضع درجات حتى سمعت صرير الباب يُفتح، وصوتًا خاملًا يسأل:

– نعم يا سيّدة... ماذا تريدين؟

توقّفت واعتلت الدرج ركضًا:

– خالتي! أنا ورد... صديقة فدا.

اقتربت منها وعانقتها.

كانت والدة فدا في لباس النوم، بدت نصف نائمة، تفوح منها رائحة الثمالة. استغرقها الأمر دقائق لاستيعاب هذه الزيارة المفاجئة:

– ورد!؟ حبيبتي ورد! ادخلي... ادخلي!

عَجِبَت ورد لرؤية من كانت ذات يوم حسناء متأنّقة، على هذه الحال الآن. لفعتها رائحة دخان التبغ المقزّزة التي اختلطت برائحة الرطوبة والعفونة. أحزنها منظر الشقّة الصغيرة بغرفة نوم واحدة، وغرفة جلوس، ومطبخ صغير وحمّام أصغر. أهنا عاشت صديقتها طوال هذه الأعوام، هي التي عرفت من العيش متّسعَه وطيبَه، ومن الأثاث وثيره، ومن الراحة أهنأها؟

ارتبكت والدة فدا وهي ترجو ورد التفضّل بالجلوس، واعتذرت عن شكلها وعن كلّ الفوضى وهي ترتّب الوسائد النحيلة البالية فوق أريكتين مقعّرتين، وتُسارع إلى إعداد القهوة. جلست ورد وشكرتها قائلة إنّها جاءتها للاطمئنان عن فدا.

وثب قلبها. لم تعد ابنتها تتردّد عليها أو تهاتفها كما في السابق منذ أن تلاسنتا.

طلبت ورد عنوانها.

– ألم تتّصلي بها؟

سألتها والدة فدا بقلق.

– بلى. أحاول ذلك منذ أسبوع. لكنّها لا تجيب.

ازدردت والـدة فـدا ريقـها. جلست واهـنـة. حـكّـت رأسها باضطراب. أغمضت عينيها. مسحت وجهها. كمّمت فمها، ثمّ زوّدتها بالعنوان.

انطلقت ورد مسرعة. أقفلت أمّ فدا الباب خلفها، انزلقت أرضًا وبكت عويلًا.

* * *

كان منزل فدا على مسافة ربع ساعة مشيًا من منزل والدتها. بلغته ورد لاهثة.

طرقت الباب بقوّة. فتحت فدا بعد دقائق. صدمتها رؤية ورد، فصفعت الباب في وجهها من جديد.

– أرجوكِ يا فدا... أريد الاطمئنان عنك! أرجوكِ!

– ارحلي يا ورد من فضلك! سأتّصل بك لاحقًا...

– افتحي الباب يا فدا!

فتحت الباب قليلًا وهي تدير وجهها بخجلٍ وحـزن. دفعته ورد ودخلت.

كـان شعر فـدا مقصوصًا بشكل غير متناسق، تُلطّخ وجنتها اليمنى كـدمـة كبيرة، وكـمـادات كثيفة تلتفّ حـول أصـابـع يدها اليسرى. أمسكتها ورد من كتفيها:

– ما الذي جرى؟ أخبريني!

– المعتاد...

قالتها فدا واختنقت بنحيبها. ارتمت بين ذراعـيّ ورد وقد خذلتها ساقاها. ارتمت أرضًا وارتمت معها ورد.

– ستكونين بأمان! هلمّي بنا! اجمعي أغراضك... فلنرحل!

سيقتلني!

– لا! ثقي بنفسك! ثقي بي! لن أتخلّى عنك! ستستعيدين حياتك!

– لا أريد الحياة! حياتي انتهت يومَ انزلقتُ جيفةً من رحمِ من لا تعرفُ الرحمة ولا الحبّ! حياتي طريقٌ باتّجاه واحد، معبّدة بالجمر، مُسيّجة بالشَوْك، حالكة كقعر بئر، مُرّة كالحنظل... مُتعِبة هذه الحياة يا ورد!

– ليست الحياة ما يُتعبنا، بل رفضنا التخلّي عمّا يتعبنا! فلنرحل!

– لا أريد لابني أن يحيا يتيمًا!

– لن يفعل! أقسم يا فدا أنّني سأنتقم لك!

* * *

اصطحبتها ورد إلى أقرب مستشفى، جاءت بابنها من المدرسة، تركت بلاغًا عن أشرف لدى الأمن، ثمّ أقلّتها إلى منزل والديها لكي تبيت لديهما ريثما تستأجر لها منزلًا حين تصبح بأمان.

وفي الأيّام اللاحقة، وكّلت لها محامية قامت بكلّ الإجراءات القانونية ضدّ أشرف.

أوقفوه للتحقيق معه، فأقسم أن يردّ لفدا الصاع صاعين. عَرَف أنّ القانون لن ينصفها، فما من شهود على فعلته، وما من دليل حسّي على تعنيفه لها باستثناء تقرير الطبيب الشرعي.

أطلقوا سراحه، فراح يتمَسكَن، محاولًا إيهامها بأنّه سيتغيّر، بأنّ ما حدث أنار ظلمته فجأة. وأجاد بالفعل تمثيل دوره. انهال عليها كلّ يوم بالاتّصالات والرسائل العاطفية الملغومة بالاعتذار، برجوعه عن الضلال، بوعودٍ كادت فدا تصدّقها لولا تأكيد كلّ من يحيط بها الآن أنّها مجرّد مناورات خادعة. وعندما قابلته بالتجاهل، عاد إلى عرينه

مُتحيّنًا اللحظة المناسبة للانقضاض. طلب إلى رفاقه الذين يماثلونه سوءًا أن يقوموا مقامه. راقبوا فدا وحاولوا الإساءة إليها، حتّى إنّهم أوشكوا على دهسها ذات مرّة. هدّدها بانتشال ابنهما منها ومنعها من رؤيته ما لم تسحب الشكوى ودعوى الطلاق التي تقدّمت بهما مُستندةً إلى كلّ أفعاله وإلى تاريخه الإجرامي المحفوظ فعلًا وواقعًا.

وإذْ عَرَفت هي أيضًا أنّ السَجْن لن يجعل منه إنسانًا أصلح، وأنّ القانون، الذكوري الامتيازات، وإن تكرّم عليها ببعض الحق، لن يحميها تمامًا منه، ولن يُعوّض لها عن كلّ الأضرار التي لحقتها منه، ارتأت، بعد حصولها على الطلاق وثبوت الشكوى عليه، إصدار أمر إبعادٍ بحقّه، وإخضاعه للعلاج النفسي بدل زجّه في السجن.

خضعت هي وابنها أيضًا للعلاج النفسي. أدركت أنّها لن تُشفى من والدتها، من طليقها، من كلّ عذاباتها، إلّا عبر فهم ذاتها أولًا، وبالمغفرة ثانيًا.

«كلّ شيء يموت...
حتى ذكرياتنا وحتى عواطفنا الحسنة
النبيلة تموت، وتحلّ محلّها الحكمة».

فيودور دوستويفسكي

– لولا البحر لظننتُ أنّنا في ملهىً ليليّ!

قالتها بشرى وهي تدخل إلى المسبح مقطّبةً حاجبيها، ناظرةً في كلّ الاتّجاهات، مصطدمةً في سيرها بالأثداء الناطحة والمؤخّرات السيليكونيّة التي ترنّحت مرتجّة فوق الكعوب العالية.

– أو في حفلة عربدة وسُكر!

علّقت ورد ضاحكة، وهي تومئ إلى الشفاه المنصهرة في قُبَلٍ ماجنة والأيادي المندسّة أسفل البُطون تحت الماء في حوض السباحة المجهّز بمَشرب، والذي لم يعد يعرف معنى السباحة ولا ما يقربها. وتابعت:

– هربنا من الضجيج إلى الضجيج! ما هذه الموسيقا التي تصمّ الآذان؟ حتّى الموج يعجز عن سماع صوته هنا. ما بالُ هذا العالم؟ حتّى الاستمتاع بالطبيعة بات مستحيلًا!؟ انظري إلى عرض الأجساد الهابط هناك. أشعر كأنّنا الوحيدتان الشاذّتان عن القاعدة!

– هنّ يستعرضن خُلوّ أعماقهنّ. الله أعلم بما يدور في ذواتهنّ ويدعوهنّ إلى ستره بكلّ هذه الخلاعة. وإن كان الشذوذ ما نحن عليه، فليكن!

بحثتا عن بقعةٍ منعزلة ولم تُوفّقا، فاضطرّتا لأن تنحشرا بين مجموعة فتيات شابّات، ورجل وامرأة كان من الأجدر بهما حجز غرفة في فندق.

تمدّدتا للاستمتاع بالشمس ومشهد البحر أمامهما، لكن سدًى.

إلى يسارهما، علت قهقهات الفتيات وصخبهنّ، وهنّ يتحادثن كدجاجات مسعورة عن الصور العارية «المعيبة» لإحدى الفنّانات الشهيرات التي تسرّبت أخيرًا، وتداولها كلّ المهتمّين بتوافه مماثلة.

التفتت ورد إلى بشرى متأفّفة: أيّ تربية تربّت عليها هؤلاء الفتيات؟! كيف لأحد أن يُدين سواه لممارسة حرّيته الشخصيّة باستعمال جسده كما يريد ومع من يريد؟ أيّ إيذاءٍ يرتكبه بحقّ الآخرين في خلوته المنتهكة أساسًا؟ يتحصّنون بالدين ونصوصه مستنكرين الجنس خارج الزواج متناسين أنّ «الناس سواسية كأسنان المشط» كما جاء في أحدها، وأنّ نذر العفّة ما قبل الزواج يشمل الرجل كما المرأة. ألم تُحرّم تلك النصوص الإساءة إلى الآخر؟ لماذا نُسهم إذًا في نشر ما لا يخصّنا بدل كسر الحلقة والتشهير بمن نشرها أصلًا لا بالضحيّة؟ ألأنّنا في سرّنا نريد جدًّا فعل ما يفعلونه لكنّنا نعجز عن ذلك؟ وما دمنا نعتبره لاأخلاقيًا، فلمَ نتداوله ونُرفقه بالشتائم والإدانة وكلّ الاتهامات الداعرة؟ ألا يُعدّ سلوكنا هذا داعرًا؟ أليس من الأجدر بنا إدانة العنف والجريمة والفساد قبل إدانة الحبّ والشغف والمتعة المتجسّدة في فعلٍ من صُلب طبيعتنا البشرية؟

أمّا إلى يمينهما، فكان مُنفّرًا ما وقع تحت نظرهما من مداعبات مثيرة بين المرأة والرجل الذي بدا كرجل الثلج لكثرة الكريم الواقي الذي مرّغ به بشرته.

رنّ هاتفه، فتباعدا:

– إنّها زوجتي. لن أجيب. سأبعث إليها رسالة.

- اذهب إلى مكان أقلّ ضجيجًا وكلّمها.

– وأين سأذهب بصوت البحر والناس؟ ستعرف لا محالة أنّني لستُ في اجتماع الغداء المزعوم.

– افعل ما تراه مناسبًا إذن.

تنحنحت بشرى، اكفهرّت بشاشتها المعهودة، وقالت بسخط: حتى البحر يأبى أن يدع ذكرياتي وشأنها!

* * *

دخل وديع مكتبها ذات يوم عندما كانت مسؤولة عن خطط الاستثمارات لكبار الزبائن في المصرف حيث عملت. جاءها طلبًا لاستشارة ماليّة بشأن سلسلة المطاعم التي يملكها ما بين لبنان ودبي.

أعدّت له خططًا أوّلية. تبادلا الرسائل والمكالمات على مدى أسبوع. هاتفها في الأسبوع التالي قائلًا إنّه يتعذّر عليه فهم بعض النقاط وطلب لقاءها للتناقش فيها وجهًا لوجه في سفرته المقبلة إلى بيروت. وسرعان ما كثرت النقاط التي التبس عليه فهمها، وتضاعفت أسفاره، وتتالت اللقاءات في المصرف وخارجه للتداول في الخطّة الأنسب لتوظيف استثماراته، وتحوّلت المهاتفات إلى رسائل على امتداد اليوم ملأى بشغفٍ أطاح كلّ الخطط الأولى.

«أنتِ كالشَفَق تُلهبين سمائي برِقّة وهجِكِ».

«أنتِ كلّ شيء. أنتِ حبيبتي اليوم وكلّ يوم».

«أنتِ دنياي ومُناي، أنتِ من آمنتُ معها بوجود ما يسمّونه الحبّ».

كانت روحها تفيض ألوانًا كلّما تلقّت حُبّه هذا مع باقةٍ من زهر أو هديّة حَرِص على أن تتسلّمها صباح الاثنين من كلّ أسبوع لكي تصرف باقي أيّامه مسرورة.

لم تنقطع الهدايا ولا الأزهار، غير أنّ شغفه أخذ يتحوّل بعد ستّة أشهر فقط. حيّرتها تقلّباته. كانت عواطفه تخبو فجأةً وهو في دبي، لتتوهّج من جديد برجوعه إلى بيروت.

عَنت دبي مكالمة واحدة في اليوم، وبضع رسائل نصّية بذريعة انشغاله الشديد. أمّا بيروت، فانحسرت إلى وجبات غداء مبكرة في مطاعم قلّ ارتياد الناس لها، أو لقاءات في شقّة له في الضواحي الساحليّة للعاصمة بدت كغرف الفنادق خالية من أيّ لمسات شخصيّة.

وفي الحالتين، كانت نهايات الأسبوع الأقسى عليها. أقصى نفسه عنها بذريعة أداء واجبات عائليّة واجتماعيّة، والتمس منها عدم الاتّصال به أو مراسلته في هذين اليومين لكي يتمكّن من التركيز في رياضته الروحيّة التي اعتمدها أخيرًا، على حدّ زعمه، للحدّ من ضغوط العمل.

شعرت بأنّ حججه الواهية تخفي شيئًا. لم تُعنْها حساباته على المواقع الاجتماعية في تأكيد شكّها أو زواله؛ فقد أبقاها خصوصية ولم يضمّنها صورًا أو إشارات تفيد بمكان وجوده. حاولت التقصّي عنه، لكنّه كان من خارج دائرة معارفها، ولم تُوَفّق في التنقيب عن أيّ معلومات شخصية في ملفّاته المصرفية. وفي تقصّيها، تنبّهت إلى أنّه لم يعرّفها سوى بصديق واحد له، وكان يتفادى حضورهما في الأماكن العامّة أو نوادي السهر، مدّعيًا أنّه يفضّل الأجواء الهادئة ليتسنّى له تعرُّفها أكثر.

ساورها الظن أنّه ربّما كان من أولئك الذين ينسحبون من الحبّ بالسرعة التي يدخلونه بها، أنّه زير نساء أو استغلالي اغتنم طيبتها. لكنّه كان يرجوها أن تثق بحبّه لها ويُطمئنها دومًا أنّها أغلى ما لديه وأنّ ظروفًا قاهرة تقف أمامه.

أصرّت على معرفتها، وأصرّ على صمته إلى أن باح لها ذات يوم بأنّه متزوّج وله بنتان صغيرتان، وأنّ زواجه كان بداعي الذرّية فقط، أسوةً بالجميع.

أفصح لها عن أنّ زوجته تحبّه حُبًّا بالمال في حسابه الدَسِم والحياة الرغيدة التي يقدّمها إليها وحُسن معاملته لها. انتقاها بناءً على رصيدها: صيتها العائلي الجيد، وشهادتها الجامعيّة، وأناقة لباسها.

أرادت بشرى أن تعرف عنه وعنها كلّ شيء. فأفصح لها عن خبايا حياته كلّها.

طلبت رؤية صورتها. كانت معايير اختياره لها مثيرة للاستغراب. هي لم تكن جميلة حتى، لكنّها كانت تُجيد التبرّج وترتدي الباهظ من الملابس التي إذا ألبستها لناقةٍ بَدَت أفروديت.

أخبرها عن شحّ علاقته الجنسية بزوجته وقلّة اهتمامها به كزوج. لكنّه لم يمانع، فهو من اختارها هكذا: ممنهجة العواطف، محدَّدة المطالب والقناعات. أعلمته قبل ارتباطهما أنّ الرجل في نظرها هو المُعيل الأساسي، وأنّ عليه تأمين راحتها من خدم وحَشَم وحاجيّات باهظة، وأنّ مسؤولياتها تقف عند الإنجاب والتربية، مُلمِّحة إلى عدم استعدادها لبذل أيّ مجهود في أيّ نواحٍ أخرى. ومع هذا كلّه، عبّر أمام بشرى عن امتنانه لاهتمام زوجته بابنتيهما وحُسن تربيتها لهما، وأشاد بكفاءاتها المطبخية ومجاراتها أوساطه العائلية

والاجتماعية، لكأنّ شهادات الكفاءة تُعطى لمن ينجز الحدّ الأدنى من مسؤولياته الأُسَريّة الطبيعية.

نَسيَ أنّ التقدير لا يليق إلّا بِمَن يكون عطاؤه عفويًا، استثنائيًا، صادقًا، اختياريًا غير محكوم بشروط، نابعًا من ذاته، ومن تقديره للآخر وحُبّه له.

أقسم لبشرى أنّه لم يعرف حبًّا قبلها، وعاهدها أنّه لن يعرف حبًّا بعدها، أنّه لم يكذب بل حاول أن يُطيل كتم سرّه خشية فقدانها. لكنّه خشي الطلاق وتبعاته أيضًا كرمى ابنتيه فقط. تجاذبه الضياع والذنب والحيرة.

كان عقله يحرّضه على إسكات قلبه، ويقول له: ارمهِ عند قدميك، اسحقه بنَعْلَيك، مرّغه في التراب ليصمت إلى الأبد! ارفض الفرح الذي يعرضه عليك، فرصة العمر التي انتظرتها عمرًا بأكمله! كفّ عن تلوين رتابة أيّامك، ارتضِ التعاسة، فقد باتت لحاءك، إن نزعتها عنك، نزعت معها جِلدَك! ارضخ للجحيم، فهي أهون عليك من الحياة. الحياة ليست لأمثالك! شجاعة اختيار الحياة لا يقدر عليها إلّا النخبة من البُسلاء، وأنتَ مجرّد نسخة ممّن تطبّعوا بلون الأكثريّة، من أولئك الذين احترفوا النمطيّة والهروب وطأطأة الرأس.

نَسيَ أنّ جِلده طبقات ويكفيه أن يقشر الأولى البالية منها لكي ترى روحه النور، وأنّه مهما هرب، فلن يقدر على الهروب من نفسه.

أمّا هي، فتجاذبها البقاء والرحيل. لكنّها أحبّته. أحبّته بكلّ قطرة دمٍ جرت فيها. أحبّت خفّة روحه ورصانته في آن، وخضرة عينيه اللتين أسرتاها، وسحنته السمراء، وشعره الأجعد الطويل المربوط، وطول قامته، وعرض كتفيه، وحنان ساعديه المفتولين اللذين احتضناها بكلّ ما في العالم من أمان.

أحبّته إلى درجة أنّها قَبِلَت ذلّ أن تكون ظلًّا، أن تعيش في عالمٍ موازٍ لعالمه، لأنّها لم تكن عشيقته بل حبيبته؛ فمن أفلت يدَ امرأةٍ ليمسك بيدِ أخرى، تَسقط الأولى حكمًا من حياته لتسكنها الأُوْلى.

كان قلبها يقول لها إنّ الحبّ أسمى من كلّ الأعراف. فيه، نتساوى جميعًا على اختلاف أعمارنا وألوان بشرتنا وتدرّجات طبائعنا. معه، نكون جميعًا أنقياء وسعداء كالأطفال، أحرارًا كالمجانين، أسرى واحدنا للآخر فقط. كان يُقنعها بأنّ المنطق والاعتدال يصلحان لكلّ شيء إلا للحبّ. الحبّ يُزهِرُ في التطرّف.

غير أنّ عقلها كان يدعوها بالساقطة لأنّها خرّت أمام ذاك الوهم. كان يقنعها بأنّها مجرّد خطّةٍ بديلة، خيار ثانٍ، بأنّ هذا أرفع ما ستصل إليه في أحسن الأحوال. كان يقول لها إنّ الحبّ الحقيقي لم يوجَد لإتعاسنا، وإن أتعسنا، نكون قد اتّخذنا الدرب إلى القلب الخطأ.

أعياها صراعها.

أضنتها تغذية أناه بتجويع أناها.

أتعبها استجداء وقته الذي سئمت أحكامه وشروطه.

أنهكها تسوُّل عشقه الذي راح يكيله بمكيال العقل، لئلا تميل كفّة ميزانه إليها أكثر.

أرهقها أن يكون السرير مساحة حرّيتها معه وأن تلزم هذه الحدود التي نصّبها فيها ملكة وخارجها نكرة.

لم تعد تحتمل تحريك بركانه متى طال بعادهما بصورها الإباحيّة وتسجيلات استمناءاتها وتأوّهاتها ونشواتها وإضرامها ناره التي كان يطفئها قسرًا في من تطارحه السرير الزوجي.

لم تعد تريد أن تكون له كلّ شيء ولا شيء في آن.

أرادته أن يكون حياتها، وأرادها شبحًا في حياته، فآثرت الرحيل.

* * *

رأت ورد دمعة تسيل على وجنة صديقتها. نهضت عن كرسيّها، جلست بقربها، ضمّتها إليها ورفعت يدها لتمسح خدّها. ثنتها بشرى:

- لا تمسحيها يا ورد، ففي دموعي انعتاق.

«الماضي لا يموت أبدًا، حتّى إنّه ليس بماضٍ».

ويليام فوكنر

لبّت ورد دعوة لميا وعُمَر إلى العشاء من دون زوجها إذْ كان في نوبةِ سفرٍ ليليّ. تعوّدت حضور المناسبات وحدها، وأصبح الأمر مألوفًا للجميع. وصلت قبل موعد العشاء بنصف ساعة. اختلطت بالموجودين الذين تعرف معظمهم. بدأت الأمسية هادئة عادية إلى أن وقع ما لم تحسب له حسابًا.

كانت على وشك اجتياز العتبة الفاصلة بين الشرفة وداخل المنزل عندما تناهى إليها صوتٌ ينادي اسمها بلطف من خلف:

– ورد؟

نفضت الصوت من رأسها. بدا كأنّه يخرج منه ولا يدخله من أذنيها. ناداها من جديد.

هذا صوته!

استدارت، وإذا به يقف أمامها. لم تره وجهًا لوجه منذ ثماني عشرة سنة، يوم موعدهما الثاني والأخير.

توقّف الزمن لحظات.

ربّي! لا يزال كما هو! لا بل أكثر وسامة!

أبرز العمر الآن تقاسيم وجهه الفاتح السحنة الماسي الشكل، بفكّين بارزين وذقنٍ مثلّث، وشفتين ممتلئتين مقوّستين متناسقتي الحجم، وأنف مستقيم نوبي واسع المنخرين، وعينين غائرتين تحت حاجبين مسطّحين كثّين. ومع أنّ الشيب أخذ بناصِيَته وصدغيه، فإن شعره الأسود لا يزال كثيفًا، منسابًا، يلامس أسفل عنقه، يتهدّل قليلًا فوق أذنيه، ويرتفع فوق جبينه بفَرْقٍ إلى اليمين في تموّج سلس.

ارتدى بذلة رماديّة عصريّة أنيقة مشدودة عند الخصر أعطت قوامه الفارع قالبًا مغريًا. أمّا صدره، فانتصب تحت قميص أبيض ضيّق كشفت فتحته عن بضع شعيرات وبشرة ملساء، وأوحى وسطه بعضلات مقطّعة التقسيم مشدودة.

وقف ويداه في جيْبَي بنطلونه. قال:

– كيف حالك ورد؟

– أنا... جيّدة. جيدة جدًا.

قالتها بابتسامة خجولة.

سحب يده من جيبه، ومدّ بها إليها:

– العفو، لم أصافحكِ.

مدّت يدها. أمسك بها، قرّبها إليه، وقبّلها قبلة غائرة على وجنتها.

خفق قلبها. أضافت وهي تزدرد ريقها:

– فاجأني... حضورك.

– جئتُ تلبيةً لدعوة عُمَر. تعارفنا قبل مدّة من خلال صديق مشترك.

قاطعتهما لميا وهو لا يفارق ورد بعينيه البنّيتين اللامعتين:

– ها أنتِ! كنتُ أبحث عنكِ. أرى أنّك تعرّفت إلى غدي؟

ردّت ورد مبتسمة وهي تنظر إليها:

- لا... يعرف أحدنا الآخر.

رمتها لميا بنظرة باستغراب. ما قصدها؟

قالت لهما وهي تُشير إلى غرفة السفرة:

- جيد! تفضّلا إلى الطاولة، العشاء جاهز.

استأذنهما غدي. وقبل أن تلحقا به، أخذت لميا بيد ورد وسحبتها بسرعة إلى الشرفة.

- أتقصدين أنّه غدي بذاته؟ يعني ذاك الغدي؟

- بالضبط.

- لكن ما بكِ؟

- لا أدري... أنتِ تعلمين... سبق أن أخبرتكِ عنه.

- نعم، باختصار، وأخبرتني يومها أنّك لم تريدي خوض علاقة معه ولم تأتي على ذكره مذّاك.

- أعرف.

- القصّة من الماضي، فلنعد إلى الحاضر الآن. سنُكمل حديثنا لاحقًا. هيّا ندخل.

هزّتها الكلمة.

هل هو فعلًا من الماضي؟

كان يتراءى لها في المنام أحيانًا كثيرة. لكنّنا لا نحلم بمن لا يستحوذون على تفكيرنا.

كان وجهه يحضرها أحيانًا ليوم كامل ويلازمها لأيّامٍ من بعده، تحاول محوه بإقناع نفسها بأنّه ذكرى... لكنّنا لا نستحضر ذكرى من لا يعنينا.

.

حضرت العشاء مجموعة من عشرين شخصًا. جلست ورد إلى جانب لميا، وتعمّد غدي أن يتّخذ مقعدًا له على الجانب نفسه منها

لا قبالتها. أصغت بفرحٍ وذهول إلى عذوبة ألفاظه، وحُسن منطقه وكياسة محاورته وإحاطته بكلّ موضوعات الحديث.

اخترقتها نبرة صوته التي خشّنها العمر، بل السيجار، الذي زاد من وقار حضوره. استغربت طلاقة لسانه الذي كان يعقده حضورها في شبابهما.

بعد العشاء، وفيما كان البعض يهمّون بالرحيل، وجدت نفسها في خلوة وجيزة معه في الصالون الشاسع. كانت تجلس على أريكة بيضاء عريضة طويلة اتّخذت منها طرفها، عندما توجّه إليها واتّخذ وسط الأريكة المقابلة. جلس وقد انحنى إلى أمام منتصب الصدر، مباعدًا بين رجليه، مُسندًا كوعيه إلى فخذيه، وشابكًا أصابع يديه. ابتسم لها. ردّت الابتسامة وخفضت عينيها.

قال بصوته المثير:

– إذن... ما أحوالكِ؟ مرّ زمن طويل على آخر لقاء لنا.

– أنا جيّدة. وأنتَ؟

– في أحسن حال.

– لا شكّ عندي.

ردّ ممازحًا:

– يبدو أنّك تتقصّين أخباري.

ردّت كذبًا:

– لا، لا أتقصّى أخبارك.

حلّ بعض الصمت. ظلّت عيناه تُديمان فيها النظر. جابت بعينيها ورأسها في أرجاء المكان، متفاديةً النظر إليه. سألها:

– إلى متى؟

خالسته نظرة وأجابت:

– إلى متى ماذا؟
– التعالي. اللامبالاة. الهروب.
– لم أفهم قصدَك.
– كلّما حاولتُ التواصل معكِ، يكون تجاوبك محدودًا.
– أنتَ تعرف أنّني متزوّجة.
– نعم، أعرف. أنا لا أقصد الفترة التي تلت زواجكِ، ولا نيّة لي في التطفّل عليه أساسًا.
– لطالما كان تواصلكَ غريبًا ومختصرًا.
– لم تمنحيني الفرصة يومًا لأسترسل.
– ربّما كان ذلك بسبب نيّاتك.
– كانت واضحة وضوح الشمس يا ورد.
– كانت عنّي محجوبة.
– ماذا لو استرسلتُ الآن؟
– لا جدوى.
– ما العيب في ذلك؟ أهو زواجكِ؟
– أنت صديق. لكن وقتي ضيّق.
– ووقتي كذلك. ووقت الجميع.
– ماذا تريد منّي يا غدي؟
– ما سرقتِه منّي.
– لا أحبّ الكلام المشفّر.
– لا تدّعي الجهل.
– كلّ هذا لا يهمّ الآن.
– بل يهمّ. لِمَ لم تكترثي يومًا؟
– هلاّ تحادثنا في أمرٍ آخر؟
– عفوًا... لم أقصد إزعاجك.

أغمضت عينيها لوهلة وتنهّدت. تابع:

– لديّ سؤال لكِ لطالما أرّقني.

– تفضّل.

– هل خطرتُ لكِ ولو مرّة كلّ هذه السنين؟

– لِمَ كلّ هذه الأسئلة؟ ما نفعها؟

– أجيبيني!

قالها برصانة حَنِقة.

– أرجوكْ...

– من أنا في قلبكِ؟

– قلبي مُلْك غيرك.

– هاه... يا لَحَظّهِ!

أمال برأسه أَسَفًا. أسنَدَ ظهره إلى الأريكة وهو يقذف بطرف سترته، وابتسم بجوًى:

– في أيّ حال، مَن مَلَكَ قلبك، مَلَكَ كلّ شيء. آمل فقط أن يصونه.

تبرّمت بحركةٍ من شفتيها وعينيها مدّعية التهكّم، غير أنّ قلبها كان يحترق:

– كفاكَ استهزاءً.

– لستُ من هذا النوع، كما تعرفين. أو بالأحرى لا تعرفين. فليملكْ قلبكِ وجسدكِ وكلّ شعرة فيكِ، لكن ثقي بأنّه لن يُسعدك يومًا كما كنتُ لأُسعدكِ ولو صَرَفَ عمره يحاول. لن يُمتّعك ويستمتع بكِ كما كُنت لأفعل.

– وما أدراكَ؟ أنا سعيدة و... مستمتعة.

– أتقولين الصدق؟

قنّع الجمود وجهها. نظرت إليه بعينين ساجيتين. نهضت مدّعية أنّ الوقت قد تأخّر، أنّ عليها الرحيل، وأنّ رؤيته أسرّتها. ودّعت صديقتها ورحلت.

ما إن أصبحت خارج الباب حتّى أفلتت كلّ غضبها على السياج النباتي إلى يمينها وانهالت عليه ضربًا مبرّحًا بحقيبتها وهي تصرخ أزيزًا. خلعت حذاءها العالي الكعب متعثّرة، ومشت حافية وهي تدبّ إلى سيّارتها بنَزَق. فتحت باب السيّارة وكأنّها تقتلعه، ركبتها، أغلقته بحدّة، وزعقت بأعلى صوتها وهي تلكم المقود بقبضتها. فتّشت في حقيبتها بهستيريّة عن علبة التبغ. لم تجدها. فتّشت في الصندوق الصغير في اللوحة أمامها. لم تجدها. صرخت أكثر، سُبابًا وشتائم لم يسبق لها أن تفوّهت بهما. ضغطت على دوّاسة الوقود حتّى أقصاها فوثبت السيّارة منطلقة. تعرّجت على الطريق الفرعيّ إلى أن بلغت الطريق السريع، فأغذّت في القيادة بسرعةٍ جنونيّة مُتجاهلةً أبواق الآخرين الغضبى. تمنّت لو أنّ بإمكانها أن تطير لتكون هذه اللحظة في سريرها، حاضنها الذي لم يخذلها يومًا، الشاهد الأوحد على كلّ مناخاتها، وعلى هروبها إلى النوم... من كلّ شيء.

* * *

في الصباح التالي، أعدّت قهوتها، أرفقتها بقطعة من الكعك، وخرجت إلى الشرفة وهي لا تزال ترتدي ملابس النوم. لم يكن فريد قد رجع بعد من نوبة عمله. أشعلت لفافة سجائر. جلست قبالة الطبيعة في الأرجوحة البيضويّة ورفعت ساقيها إلى صدرها.

كانت الطبيعة ملاذها الوحيد متى ضاقت بتُساؤلاتها.

كانت تحكي مع الشجر. تسألها عن خواء روحها رغم كلّ ما لديها، عن سبب شعورها بنقصٍ لا تعرف تلمّس موضعه فيها، عن ذاك الوخز المستمرّ الذي يُقلق راحة أيامّها.

كانت تشعر بأنّ الطبيعة تُصغي إليها وتُجيبها بحفيف أوراقها أو تغيّر لون سمائها أو نسماتها بحسب حالاتها.

تناولت هاتفها، واتّصلت بمنزل والديها. أجابت إحدى ابنتيها.

– حبيبتي! صباح الخير!

– صباح الخير ماما! سوف يصطحبنا جدّي وجدّتي إلى مركز التسوّق عند الظهر، وعدانا بشراء لعبتين جديدتين بعد أن نتناول الغداء!

– حقًّا!؟ سأكون هناك لملاقاتكم إذن!

– إلى اللقاء ماما. سأخبر جدّتي.

وضعت هاتفها جانبًا.

ترجّحت بهدوء وترجّحت في ذهنها الأفكار. لم يفارقها غدي منذ لقائهما أمس. في الواقع، هو لم يفارق ذهنها يومًا منذ أن تعارفا.

عندما دخلت الجامعة، كان غدي في سنته الدراسيّة الثانية. التقته عبر مجد زوج آية. اختصّ بإدارة الأعمال التي أفضت في ما بعد إلى امتلاكه إحدى أكبر وكالات الألبسة المستوردة في لبنان. كان عصاميًا. بنى نفسه بنفسه، إذ إنّ عائلته كانت متوسّطة الحال ولم تورّثه سوى تعليم خاصّ لائق، وكان أهلًا له لشدّة ذكائه ووعيه الذي سبق سنّه.

أُعجب بها جدًّا، ورغم إعجابها به، لم يتواعدا في حينه باستثناء تناولهما العشاء على انفراد مرّتين.

كانت من الفتيات اللواتي يحتكمن إلى العقل. ولم تكن تثق بقلبها، لأنّه كان ضعيفًا وهي لا تحبّ الضعف. خشيت أن يورّطها قلبها، أن تهيم في حبّه وأن يقف ذلك عائقًا أمام تطلّعاتها.

كانت في مقتبل العمر، أحبّت الاستكشاف ونهل ما في الحياة من تجارب. أرادت أن تعمل، أن تسافر، بل أن تهاجر. كانت تُردّد أنّه مهما اختبرنا في بلدنا، يظلّ أفقنا محدودًا ما لم نجتز حدوده. غير أنّها لم تفعل.

ولم تكن تثق تمامًا بنيّاته. لم تشرّع كلّ بابها له، لاعتقادها بأنّه كغيره من الشبّان، منجذبٌ إلى جمالها بالدرجة الأولى، وأرادت هي أن ينجذب إلى روحها وعقلها اللذين لن يذويا متى ذوى صباها.

كلّما نظرت إلى عينيه، رأت فيهما كلامًا مخبوءًا لم يتلفّظ به يومًا. استفزّها صمته وذاك التردّد المخفيّ في تقرّبه منها وكأنّه يهاب الدُنوّ من هالتها.

استشعرت أنّه يريدها ولا يريدها في آن.

تخبّطت بين تردّده وشعورها نحوه، وبين رغبتها في الحياة.

أرادته ولم تُرِده في آن. فارتأت الخيار الثاني لأنّه أقلّ مجازفة.

وباعدت بينهما الأيام، ووسّعت هوّتها دفائن قلبيهما التي أَمْعَنا في كتمانها.

لِمَ الآن؟

كان يمكن أن يلتقيا في أيّ لحظة من أيّ مناسبة وفي أيّ مكان. ثماني عشرة سنة لم تلمحه فيها يومًا، ولم تلتقِه يومًا لدى مجد وآية، ولم يتهاتفا في خلالها سوى مرّة، وكأنّ قوّة ما أرادت أن يكون كلٌّ منهما في فضاء مستقلّ عن الآخر. كان تواصلهما على مرّ السنين الأخيرة مقتصرًا على المعايدات الرسميّة عبر حساباتهما الاجتماعيّة. كان تواصلًا صامتًا وباردًا.

وإذْ هي شريدة أفكارها، لمحت بزاوية عينها اليسرى ما يتّجه نحوها بسرعة فائقة، أمالت رأسها وخفضته زاعقة. كان عصفور كناري أصفر اللون صغيرًا. عَبَرَها واستقرّ على الحاجز الزجاجي للشرفة إلى يمينها.

حدّقت إليه وأسرّت لنفسها من دون تفكير: ماذا جئتَ تخبرني؟

نفضت كلامها من رأسها ودخلت على عجل. كانت تخاف العصافير.

استعدّت لملاقاة ابنتيها ووالديها، وقبل أن تخرج، توجّهت إلى واجهة الصالون الملاصقة للشرفة كي تخفض ستائرها لحجب الشمس، فرأت الكناري لا يزال منتصبًا عند الحاجز الزجاجي. طار واستقرّ على عتبة النافذة قبالتها من الخارج. لم يأتِ بحركة. صوّب عينه عليها فقط.

وثب قلبها. نقرت على الزجاج ليطير. لكنّه لم يطر.

«إليكِ إشارة من الكون»، أجابتها الطبيعة.

«توهّمتُكَ فارسًا قادمًا من عصور الوفاء المنقرضة [...]
وكان كلانا مخطئًا».

غادة السمّان

- نخبكِ حبيبتي! عيد ميلاد سعيدًا!

- أنت عيدي يا عُمَر، وفرحي وسبب عيشي.

تبادلا قبلة حميمة، وواصلا شرب النبيذ. اختارا هذه المرّة فرنسا لقضاء إجازتهما الصيفيّة. ارتادا أحد المطاعم الفاخرة الرومنسيّة الأجواء. تعوّدا المجيء إليه متى زارا باريس، لِما يحمله لهما من ذكريات. ففيه، طلب عُمَر يد لميا للزواج.

كان المطعم مكتظًّا لكن هادئًا. اقترب منهما النادل لتدوين طلبهما، ثمّ انصرف. وفيما جال عُمَر بنظره في المكان، لاح له فريد يجلس وحده في الزاوية المعتمة المقابلة لهما ويطّلع على قائمة الطعام.

- فريد هنا! لا بُدّ من أنّه يستريح ريثما يحلّ موعد قيادته الرحلة الجوّية المقبلة. ما رأيكِ في دعوته إلى الجلوس معنا؟

- بالطبع!

نهض عُمَر، اتّخذ بضع خطوات، ثمّ ما لبث أن لَزِمَ مكانه وقد هاله ما رأى.

اقتربت من فريد شابّة غاوية في أوائل الثلاثينات، ترتدي من الفساتين أضيقها وأقصرها. نهداها ناطحان مكشوفان، شفتاها الحمراوان تملآن وجهها، جفناها منسدلان تحت ثِقْلِ رموش اصطناعيّة، وشعرها الأشقر الفاقع المالس يصل إلى خصرها.

تراجع عُمَر إلى كرسيّه، وعاود الجلوس.

وقف فريد للشابّة والوَلَه بادٍ على وجهه.

جحظت عينا لميا.

جلست الشابّة، وجلس فريد، وقد قرّب كرسيّه من كرسيّها. دنت منه، طبعت قبلة عابثة رطبة على وجنته، ولامست أنفه وشفتيه بسبابتها ضاحكة. أمسك بيدها وهو يتفرّسها، قبّل إصبعها، ثمّ امتصّ شفتيها في قبلة همجيّة.

لم تصدّق لميا عينيها. نظرت إلى عُمَر، ثمّ إلى فريد، ثمّ إلى عُمَر وقد شقّ عليها الكلام.

التقطت المنديل من حضنها وهي ترتجف غيظًا، ألقت به على الطاولة بغضب، وهمّت بالوقوف وهي تُردّد:

– وقح! لا... ورد لا تستحق ذلك!

شدّها عُمَر من ذراعها لتجلس:

– لا يا لميا. هذا شأنه وشأن ورد.

– ألا ترى ما يجري؟! فليعرف على الأقلّ أنّ أمره افتُضح!

– لا نعرف ما الذي يجري. ربّما كان يعاني وورد من مشكلات زوجية.

– لا! ورد لا تخفي عنّي سرًّا!

– مؤسف! أين كلّ ما يدّعيه من تهذيب ووقار وانضباط؟

– جَعَلَنا نظنّ أنّه زوج مثالي! يبدو أنّ الرجل مهما أعلى دفاعاته، قد تُسقطها أيّ امرأة يومًا ما!

– أشكّ في أن تكون المرأة هي السبب...

– يا لهذا العاهر المنحطّ! حتّى وإن ردعتني عن مواجهته يا عُمَر، فلن أسكت. سأخبر ورد.

– ستعرف عاجلًا أو آجلًا.

– لكنّها تستحق أن تعرف في أقرب وقت.

– خبرٌ كهذا قد يدمّرها.

– ورد صلبة. قد تنوء، لكنّها ستنهض من جديد.

كان فريد يداعب عشيقته ويهمس في أذنها، وكانت تقهقه، تتمايل دلالًا، تفتل خصلات شعرها بغواية، ترتمي على كتفه وتُطعمه ضروبًا من الطعام بيديها، تُدخل إصبعها في فمه ليمتصّه، ثمّ تمرّره على شفتيها...

– أرجوك يا عُمَر، لم أعد أحتمل هذه الفُرجَة، فلنسدّد الفاتورة ونخرج. كلّ هذه السفالة سدّت نفسي.

قالتها لميا وهي تنهض للتوجّه إلى الحمّام قبل المغادرة.

فيما هي خارجة، اصطدمت بفريد يدخل حمّام الرجال. حيّاها مدهوشًا:

– لميا؟! أعني... مساء الخير!

لاحَظَ أنّ الحنق يخرج من عينيها، تابع بابتسامة:

– أنتِ وعُمَر هنا؟ أعني... لألقي عليه التحيّة.

– وفّر تحيّتك وتحايلك لنفسك!

– ما هذه اللهجة يا لميا؟

– والله أودّ بكلّ جوارحي الآن أن أستلّ أكبر سكاكين الطاهي وأكثرها شحذًا لأقطّعك إربًا!

– ما بكِ!؟ ما هذا الكلام!؟

لن أسكت يا فريد! رأيتك! ومن حقّ ورد أن تعرف!

أبعدته بلكزة من كتفها واتّجهت نحو ردهة المدخل حيث كان عُمَر في انتظارها.

ناداها باضطراب:

– لميا! أرجوك! دعيني أشرح!

نفضت الهواء بيدها خلف كتفها أنْ اسكت، وخرجت.

16 تموز/يوليو 2016

بعد عودتهما من السفر، أقام عُمَر سهرة للاحتفال بعيد ميلاد لميا في قصرهما الضخم في أدما.

حضرتها ورد من دون زوجها بسبب سفره.

هل وجّها دعوة إلى غدي؟

حتى لو فعلا، الأرجح أنّه لن يحضر، فهو يصرف وقته في السفر ولا سيّما صيفًا.

لكنّه حَضَر.

وصل متأخّرًا. لمحها من بين تعرّجات المدعوّين الواقفين في حلقاتٍ يتبادلون الضحك والخبث والمجاملات وتسجيل الانتصارات واحدهم في مرمى الآخر.

كانت في مؤخّر الصالون المكتظّ، تُحادِث مجموعة صديقات. جلست جانبيًا على يد الأريكة البيضاء، مُتّكئة بكوعها على مسندها، وفي يديها كأس نبيذ.

أحسّ بوهجها. التقط نَفَسَه، عدّل سترته ودخل.

تناهى إليها صوته وهو يُحيّي من يمرّ بهم. خفق قلبها. أحسّت بحرارةٍ في وجهها. هي المرّة الثانية التي تصادفه فيها في

غضون شهرين تقريبًا. ابتعد الصوت. لم تُـدِر رأسها بالكامل بل أمالته قليلًا مُتتبّعة اتجاه ابتعاده. لا بُدّ من أنه توقّف على الشرفة. سألتها إحدى النساء اللواتي كانت برفقتهن إن كانت تودّ كأس نبيذ أخرى. اغتنمتها فرصة، فطاولة المشروبات قريبة من الشرفة. توجّهتا إلى الطاولة.

ها هو هناك، في الخارج، ظهره للناس وكلّ شيء في الداخل.

فيما مُلئت كأساهما، سمعتا صوت صديق يُـنادي عليهما لترافقاه إلى الشرفة. فعلتا.

لـمحتها لـميا من بعيد. أشفقت عليها وقـرّرت أن تخرج عن صمتها وتخبرها كلّ شيء غدًا صباحًا.

استدار غدي على صوت التحيّات الصاخبة. سلّمت عليه ورد بالكلام وبقبلة سريعة على وجنته من دون أن يتصافحا. ظلّ رصينًا كعادته. تبادل الأربعة الحديث بعض الوقت. ثمّ اعتذر الصديقان، فالموسيقا أجمل من أن تُقاوَم، وانبريا إلى الداخل يرقصان.

بقيا وحدهما، وكـأنّ طاقات الكون أرادت لهما ذلك. وقفا متجانبين يحدّقان إلى الأجسام المتمايلة أمامهما. لا يريان فيها سوى خيالات. ولا يسمعان موسيقا. دسّ يديه في جيْبتَي بنطلونه لئلا تراهما ترتجفان. عصرت جزدانها بيدٍ لئلا يحسّ بتوتّرها، وارتشفت نبيذها بالأخرى.

تنحنح محاولًا إخفاء ارتعاش صوته، قال:

– تبدين جميلة كعادتك. شَعرُك تحديدًا.

شكرته وأطرقت بصرها خجلًا.

أضاف:

– هل لي بسؤال؟

– تفضّل.

– هل آمنتِ يومًا بأنّني كنتُ أريدكِ لذاتك، بكلّ ما أنتِ عليه؟

– عندما فعلت، كان الأوان قد فات.

– لِمَ لَمْ تمنحي شعوري فرصة؟

– لم أفهمكَ يومها.

– كانت تكفي كلمة منكِ... سؤال... استفسار.

– حذّروني منك. قالوا يُريدك الجائزة الكبرى ليُتوّج بها لائحة غزواته النسائيّة. صدّقتهم بسبب تاريخكَ الحافل الذي لم يوفّر نصف بنات الجامعة.

ضَحِكَ باستهزاءٍ مجبول بالمرارة. قال ولا تزال يداه في جيبتيه:

– كُنّ جميعهنّ زادًا على الدرب الذي يُفضي إليكِ.

– لم تقاربني جدّيًا يومًا. أنا لا أملك ألغاز الكون لأحزر أنّني المختارة.

– أمكنكِ، لو سمحتِ لي. صددتِني المرّة تلو المرّة. هل أُعدّدها لكِ؟ فقد أحصيتُها كلّها!

– شرحتُ لكَ السبب.

أطبق الصمت لحظات. نظرت إليه وقالت:

– أعترف بأنّني نادمة على تفويتي فرصة التقرّب منك... في أيّ حال، لا يهمّ كلّ هذا الآن. لا اعترافاتي ولا سواها، فكلّ شيء يذهب أدراج الرياح.

– إلّا أنتِ... لزمتِ مكانكِ رغم السنين والأميال والبُعد والجفاء. أبحث كلّ يوم عن تسمية لإحساسي تجاهك ولا أجدها. أحاول كلّ يومٍ أن أطويكِ ذكرى وأفشل. أنتِ حُلمي... الوحيد الذي لم يتحقّق.

قالت ضاحكة:

– قد يتحقّق... في الحياة الثانية ربّما.

ابتسم:

– أشعرتِ يومًا بشيءٍ نحوي؟

– أرجوكَ لا تعذّبني وتعذّب نفسك بأسئلة لا تفيدك.

– أعذّبكِ؟ أجيبيني من فضلك. أستحقّ أن أعرف.

– لن يُفيدكَ جوابي بشيء... عليّ أن أرجع إلى صديقاتي. سُررت بك.

وضعت كأس النبيذ شبه الممتلئة على طاولةٍ بجانبها وهمّت بالدخول.

صرخ:

– انتظري! حرمتني الحياة... فلا تحرميني الدقائق!

جمدتْ وكأنّ جدارًا من صخر ارتفع أمامها وحجبها عن كلّ شيء. ما هذا الذي يقوله؟

أمالت برأسها قليلًا إلى خلف من دون أن تستدير، قالت:

– ماذا تريد أن تعرف؟

– أشعرتِ يومًا بشيءٍ نحوي؟

رفعت رأسها إلى السماء وتنهّدت:

– ألَمْ تخبرك عيناي شيئًا يومها؟

– قالتا إنّك لا تبالين.

– أنتَ على خطأ.

– هذا ما أكّده تواصلكِ المقتضب على مرّ الزمن.

– وأيّ إسهاب كنت تتوقّع؟ بتُّ أكره النقاط وعلامات الاستفهام والتعجّب التي لم تكن تكلّف نفسك مدّها بحرف! ومتى

قرّرت أن تستعمل الكلام، كنت تطرح أسئلة سخيفة تعرف جوابها أو تكرّر إعجابك بمفاتن جسدي. أتُسمّي هذا تواصلًا؟

تقدَّمَ على مهلٍ إلى حيث تسمّرتْ:

– لطالما كنتِ مثل الكنز... لم أعرف سبيلًا إليكِ.

– لكلِّ السُبُل خرائط يا غدي.

هو الآن يقف خلفها بخطوة، مصوّبًا نظره إلى الشقّ الطولي العريض في ظهر فستانها.

أحسّ برغبة عارمة في دسّ يده داخله وملامسة كلّ جزء من بشرتها.

خفتت الموسيقا الراقصة وعلت نغمة آسرة. كانت تلك الأغنية الرائجة التي تروي قصّة امرأة تبدو للجميع عكس ما هي عليه فعلًا.

تبرّمت متأفّفَة، وكأنّها القطعة الناقصة لتكتمل لوعتها. أحسّت بقلبها على وشك الانفجار.

لم يستطع تمالك رغبته. انسلّت أصابعه إلى ظهرها ولامسته برِفق من أسفله صعودًا إلى عنقها. استردّ يده على عجل كأنّما اقترف خطأً.

سَرَتْ بها كهرباء لكنّها لم تجفل، وكأنّ الأغنية خدّرتها.

أحسّت بمعدتها تنكمش. رفعت رأسها إلى ظلمة الليل مغمضة العينين وحاولت استنشاق بعض الهواء.

رَغِبَ رغبة جامحة في معانقتها.

أمسكها بذراعها وشدّها إليه ليقابل وجهها. رأى دمعًا يُندّي عينيها.

– أهذه حالكِ؟

رمشت، منكّسة نظرها بإِباء ولم تُجب.

هزّها بذراعها:

– أجيبي!

رمت ببصرها إلى يده وأومأت له أن يخفضها، ففعل معتذرًا.

– ورد...

– ماذا؟

– أنا...

– ماذا؟

– لا يهمّ... فلن يتغيّر شيء.

– لطالما كرهتُ تردّدكَ وسكوتك الطافح بالكلام!

– أربعٌ وعشرون سنة... وأنا...

– انطق بربّك! أرِح قلبكَ من حِمله وأرِحني!

– أنا أحبّكِ! أعشقكِ! أعشقُ الأرضَ تحت قدميك!

تسارع نبضها وأغشى الدمع عينيها. لم تقوَ على قول شيء. تراجعت عنه مذهولة. أحسّت بالغصّة تعاود خنقها. رفعت جهة من فستانها. استدارت وهرعت إلى الداخل. استحلفها أن تنتظر.

لم تنتظر. قال بصوتٍ خافت:

– لا تـهربي... فأنتِ سُكنى روحي.

استدار ناحية الملأ الأسود. ضرب الحاجز الحديدي للشرفة بقبضته شاتمًا نفسه وحظّه.

التقط كأسها، تجرّع نبيذها دفعةً واحدة، ودخل.

* * *

غادرت وقد أوْقَدَ فيها نارًا لا تستكين. ما هذا الذي قاله!

لـمَ الآن؟

وصلت إلى المنزل بُعيد منتصف الليل، وفيما أدارت المفتاح في الباب، شعرت بنسمة خفيفة تلفحها رغم الحرّ. اقشعرّ بدنها.

دخلت. رأت فريدًا في غرفة الجلوس، لا يقرأ ولا يُشاهد التلفاز ولا يستمع إلى الموسيقا. يجلس فقط.

– مرحبًا حبيبي. متى عُدت؟ لمَ لا تزال صاحيًا؟ ألا تحتاج إلى بعض الراحة بعد يومين من السفر؟

– ورد، ثمّة أمر يجب أن تعرفيه.

اعترف بخيانته المستمرّة لها مع نساءٍ مختلفات على مرّ سنوات زواجهما، بأنّها ليست السبب، بأنّ فِعْله هذا نابع من عجزه عن الاستمتاع طويلًا بما سبق له أن استكشفه. مع ذلك، أقسم أنّه يحبّها حقًّا وأنّه لا يقوى على خسارتها.

تشابَكَ كلّ شيء في رأسها.

هو لا يحبّ المزاح.

لم يُبدِ يومًا إشارات تنمّ عن فسقه.

أتراه يكذب؟ لا، هو لا يكذب. بلى يكذب!

احتاجت إلى دقائق لتستفيق، ويكفّ الأزيز في أذنيها من وَقْعِ قنبلته.

هوت على الأريكة وقد تلاشت كلّ قواها.

صدمتان في ليلة واحدة؟

أيّ إثم اقترفته في حياةٍ سابقة لها ولم تدرِ به؟

أيّ عقاب يحلّ بها؟

لمَ كلّ هذا الجَور؟

نهضت، وجعلت تُهلِك قدميها ذهابًا وإيابًا في الغرفة، تهذي بأسئلة لم تنتظر جوابًا عنها، وتقذفه بأخرى ردّ عليها بالسكوت. طلب السماح وفرصة أخرى مؤكّدًا أنّه سيفعل ما بوسعه ليتغيّر.

- لمَ انتظرتَ كلّ هذا الوقت لتخبرني؟

- ...

- ماذا أعني لكَ؟

- ...

- كيف أمكنكَ أن تنام إلى جانبي، ومعي، قرير العين؟

- ...

- لمَ أقدمتَ على الزواج بي رغم معرفتكَ ذاتك؟

- لأنّك سيّدة يتمنّاها كلّ الرجال.

عندئذ فقط تذكّرت يوم أخبرها أنّه لم يستقرّ في أيٍّ من علاقاته السابقة لأكثر من ستّة أشهر، وعندما سألته مرّة لماذا تأخّر في الإقدام على الزواج رغم كلّ ما لديه من مقوّمات، قال: «لم ألتقِ بعد من تناسبني».

رشقته بسؤال:

- هل تزوّجتني لأنّني أناسبك؟

- تعرفين الجواب.

- أي إنّني كنت الفرصة التي لا تُفوَّت؟ الفرصة التي تخدم مصالحك؟

- بربّكِ!

- من أنا في حياتك؟

- ما هذه الأسئلة يا ورد؟!

- من أنا؟!

- زوجتي وأم ابنتيّ.

كم ودّت لو قال رفيقة دربي.

- من أنا في نظركَ؟!

- جوهرة ثمينة.

– أي إنّني مجرّد «شيء» اقتنيتَه لتضيفه إلى تُحَفِك الفنّية هذه كلّها؟! مجرّدُ مكمّلٍ باهظ يُمتّع عينيك، يُشرّف مقامك، يخدم أغراضك؟!

قالتها مُلوّحة بذراعيها وبرأسها دائريًا مشيرة إلى كلّ ما طوّقها.

استقرّ نظرها على الساعة الهيكليّة الصغيرة في قالبها الزجاجي من صنع Savory & Sons التي تعود إلى عام 1850. توجّهت إلى المدفأة حيث وضعها واستأثرت بها. أمسكت بها عاليًا بيدٍ واحدة. قالت وهي تخضّها:

– أي إنّني أساوي هذه؟!

– ...

– أجبْني!!!

– أرجوكِ اهدئي! ضعيها في مكانها من فضلك!

وإذا بها تفلتها بفتور، فترتطم بالأرض وتتهشّم أجزاءً.

ضرب يديه على رأسه موهولًا:

– ما الذي فعلتِهِ يا ورد؟! ما الذي فعلتِه؟!

– تمامًا ما فعلتَهُ بي!

دنا من شذرات الساعة، ركع وأخذ يجمعها.

استشاطت ورد غيظًا، فركلتها بقدمها.

استقام ليحاول تهدئتها. رفعت راحة يدها في وجهه وهدّدته حانقة وهي تشيح وجهها عنه ألّا يقترب أكثر وإلّا فلن يسلم ممّا قد تُقدم عليه.

تراجع ببرودة.

تطايرت شظايا غضبها واخترقته بأبشع الأوصاف، ليس لأنّه خانها، بل لأنّه سَلَكَ في الغدر كلّ طريق والغدر أشدّ خطيئة. أمرته أن

يُدبِر من فوره، أن يختفي، فوجهه الحقيقي دميم جدًا وأشنع من أن تنظر إليه.

تناول محفظته ومفاتيح سيّارته وخرج. قال في طريقه: أنا أحبّك حقًا.

– اخرج!!!

قالتها وهي تصرخ مُجلجلة.

أحسّت بصدرها ينتفخ ويضيق، وبقلبها يطرق بشدّة خشيت معها أن يتوقّف. انحنت إلى أمام وهي تنوح، نزلت أرضًا راكعة، غطّت وجهها بكفّيها، ألصقته بفخذيها وناحت أكثر. شدّت قبضتيها حتى انغرزت أظافرها في كفّيها وانتحبت صراخًا من ثنايا كيانها.

استقامت مترنّحة، مسحت دمعها وتوجّهت زائغة إلى غرفة النوم. وقفت عند الباب لحظة ثمّ انقضّت على ملاءة السرير والوسائد وقذفت بها أرضًا.

دارت في الغرفة بهستيرية، ضربت مرارًا بقبضتيها على سطح طاولة التبرّج ولا تزال دموعها تنسكب بمرارة. قذفت إلى الحائط بقارورة العطر الباهظ الذي أهداه إليها فريد الشهر الفائت. كرهت جدًّا شذاه القويّ، لكنّها تعطّرت به لترضيه. ارتدّت القارورة إلى السرير ببساطة. التقطتها مجددًا ورمت بها على إطار الصورة التي جمعتهما يوم الزفاف. تشقّقت زجاجة الإطار ولم تنكسر. فتحته باضطراب، رفعت منه الصورة، جعّدتها بكلتا يديها، ألقت بها تحت قدميها، داست عليها دوسًا متكرّرًا وركلتها بعيدًا. اندفعت إليها، انتشلتها عن الأرض، مزّقتها إربًا ورمت بها في كرسيّ المرحاض.

نظرت إلى خاتم الزواج الماسي في إصبعها، خلعته بسخط، ورشقته من يدها في الهواء وهي تتلفّظ بالشتائم.

سقط سقطة خافتة بالكاد سُمِع وقعها، تمامًا كحياتها معه.

وهنت ساقاها لثقل كلّ هذا الحِمل دفعة واحدة.

تراجعت إلى السرير، جلست عند أسفله، احتضنت نفسها ورفعت رأسها إلى السماء:

لماذا؟ ما خطيئتي يا ربّي! ما هي؟!

لم تعرف لِـمَ فَعَلَ فريد كلّ ذلك، لكنّها عرفت أنّـه مجرم محترف أتقن تـمامًا إخفاء آثار جريمته.

خارت، فتمدّدت على فراشها وبكت جمرًا.

لم تبكِه حبًّا به، بل لأنّه خان عهدهما.

بكت أسفًا على كلّ لحظة سطّحت فيها نفسها لأجله، على كلّ فرحة اجتزأها منها لئلّا تُذيب جبل جليده، على كلّ لذّة حرمها منها وكلّ نارٍ أخمدها فيها، على كلّ خمشةٍ سحجتها بها كلماته التي كان يبلّلها بالسُمّ بنجاسةٍ مُبطّنة كلّما اختلفت معه رأيًا أو قولًا أو سلوكًا.

بكت عمى ثقتها به، وخفّة عقلها، وخياراتها المتسرّعة. آلمها ادّعاؤه حبّها لأنّ من يحب لا يخون. ففي الحبّ امتلاءٌ، ارتواءٌ فائض، إشباعٌ تامّ، اكتفاءٌ وافٍ لا يترك في القلب حجرات فارغة تحتاج إلى ما يسدّ نقصها.

حَضَرَها غدي وكلّ ماضيهما الذي لم يكن، والفرصة التي لم تمنحه إيّاها في صباها.

حضنت الوسادة وهي تشهق، اعتصرتها وصرخت بها، تكلّمه:

نعم يا غدي خطرتَ لي ألف مرّة ومرّة على مرّ السنين! أحيانًا بسبب جملة ما في أغنية أو كتاب؛ بسبب مشهد سينمائي أو حبيبين يافعَين متعانقَين.

خطرتَ لي مرارًا وأنا أنتظر زوجي أن ينزل من السماء، ومتى نزل كان منهكًا لا يقدر على الحميميات ولا المداعبات ولا حتى الكلام!

خطرتَ لي مرارًا كلّما تشاجرت معه لسببٍ تافه، أو سببٍ جلل ولعنت حظّي وخياراتي، وتخيّلت كم كنتَ لتُسعِد روحي، وما كانت عيني لتذرف دمعة ولا قلبي لينكسر!

خطرتَ لي مرارًا وأنا أقلّب مشاهد من حياتي، فأقلّب صُوَرَكَ في حساباتك الاجتماعية، وتسري بي الغيرة، وأغتاظ لابتهاج حبيبة جديدة بك، لقبلة تطبعها على خدّك، لذراعيها تطوّقان وسطك، لرأسها يتوسّد صدرك، لذراعكَ تعانق ظهر الكرسيّ خلفها، ويدكَ الملقاة على كتفها، وأصابعكَ المتراخية في راحة يدها.

خطرتَ لي مرارًا وأنا أستحمّ، أتخيّلك تندسّ خلفي، تلاعبني بيدك، بفمك، ونمارس الحبّ تحت الماء.

خطرتَ لي مرارًا وأنا في أوج شهوتي، في استمناءاتي أتخيّل هياجك يُلهب ناري المتّقدة أبدًا.

خطرتَ لي مرارًا كلّما غفوت، أراك إلى جانبي تراقبني في نومي وتلفّني بفيض حبّك، ذاك الحبّ الخالص المفعِم الذي لا بُعد له ولا زمنَ ولا منتهى، يسع العالم ولا يتّسع إلّا لي.

خطرتَ لي دون سواك، رغم عشرات الوجوه والأجساد التي عَبَرَتْني.

تناولتْ هاتفها. استمعت إلى أغنيته المفضّلة، وانتقلت معها إلى عالمٍ رسمته لهما.

غريبةٌ أسماؤنا كيف أنّها تتلبّسنا تمامًا

وتحدّدُ مصائرنا ببضعة حروف.

كانا في شاليه جبلي مطلّ على البحر. اشتراه غدي منذ سنوات ليختلي فيه بنفسه كلّما كدّره ضجيج المدينة والناس وضجيج قلبه. كان فيه من الأثاث ما قلّ، ومن الألوان ما يهدّئ الروح.

هل جاء بكثير من حبيباته إلى هنا؟ فهو لم يتزوّج بعد أن مرّ بخطبتَين فاشلتَين. هل يعاملهنّ جميعًا بالطريقة نفسها، أم يُبدّل أسلوبه بحسب كلّ منهنّ؟ تساءلت ورد وهي تقف على الشرفة، تستنشق رائحة الصنوبر، تحتسي النبيذ، تُبحر عيناها في السماء، تتأمّلان وسع الكون وكوكبتها المفضّلة.

قال من الداخل:

– منّي إليكِ.

انبعثت الأنغام كأنّها تأتي من زمن سحيق البُعد.

خرج إليها. وقفا بصمتٍ يسرحان في المنظر على جمال الألحان. أخذ كأس النبيذ منها، احتسى رشفة، وضعه جانبًا ومدّ إليها بيده اليسرى. أمسكتها برفق. رفع يدها إلى صدره. رفعت يدها الأخرى إلى كتفه. لفّ خصرها بيده اليمنى وقرّب جسدها منه قليلًا.

ردّدت أغنيته كلّ ما أراد قوله لها منذ أربعٍ وعشرين سنة. راحت تبتسم كلّما برقت عيناه عند هذه الكلمة أو تلك. قرّبها أكثر. شعرت بحرارته. لهبٌ دافئ لا يحرق. تمايلا، عيونهما تُصغي، ترمش تارة، تنخفض، تبتسم تارة، ثمّ تتلاقى وتثبت.

أزاحت يدها على مهل من وسط كتفه إلى عنقه، وبتمهّل أكبر لامسته بأناملها. انتفضت كتفه وكأنّ شرارةً سرت منها إليه. ابتسم. أرخى جفنيه. قبّلها في جبينها. قرّب أنفه من أنفها وشدّ بيدها على قلبه. أحسّت بأنفاسه تتثاقل. أسدل يدها وأدارها بحنوٍّ لتلاصقه من ظهرها. عانقها بولعٍ في وسطها. شبكت ذراعيها فوق ذراعيه، وألقت برأسها من خلف على صدره. كانت عيونهما مغمضة، وكأنّهما ودّا لو تُطبق العتمة على إحساسهما أبدًا. مرّغ وجهه في شعرها، مرّر أنفه في تماوجه، استنشق فوحه، وكلّ لحظات شغفه المكبوت، وكلّ السنوات الضائعة. أمَالَ شعرها بأصابعه إلى اليسار وقبّلها قبلة صغيرة في عنقها. ارتعشت لوهلة كما لم ترتعش من سنين، استدارت لتواجهه، فتحت عينيها وهو لا يزال يطوّقها وتفلّتت منه ببطء.

قالت كذبًا إنّها تشعر ببعض البرد، وستدخل.

تَبِعَها بعد ثوانٍ وأغلق باب الشرفة. لم تدرِ ماذا تفعل. أتجلس؟ أترحل؟ أتقول شيئًا؟

فجأةً، جذبتها يده من خصرها إليه بقوّة. وثب قلبها. تقاربت الشفاه نصف مفتوحة، متلهّفة، مقاوِمة، مُستميتة، معتكفة. علت وتيرة الشجن في الغناء وكأنّها تُخرجهما من ذاتيهما، فإذا بالشفاه تنصهر بحماوة.

حملها إلى خصره ولا يزالان في قُبَلٍ. طوّقت عنقه بذراعيها. تجرّعت شفتيه الممتلئتين المثيرتين. لطالما أرادت أن تتذوّق شهدهما. رفعت يديها إلى مؤخّر رأسه، غرست أصابعها في شعره

الأسود الكثيف وشدّت عليه. تراخى بها على الكنبة. تمدّد فوقها، قبّلها برِفقٍ وهي لا تزال تعانقه. تسلّلت يده إلى فخذيها، صعدت إلى نهديها واستقرّت عند جِيدها. استقام قليلًا للتجرّد من آخر الحواجز بينهما، فقد آن أوان إسقاطها.

خلع قميصه على عجل، ثمّ نزع بنطلونه. راقها عُري صدره الأملس. كان مفتول العضل ولم تَعُق وَسَطَهُ بدانةٌ. فكّ أزرار فستانها وقذف بجزءيه إلى جنبيها. استكان لحظة ليرتشف ما يرى.

ها هي أخيرًا، ملكته، وحُلمه، وحبّ حياته، ها هي مستلقية تحته، بملابسها التحتيّة السوداء التي أبرزت بياض قدّها. مرّر أصابعه على مهل عند أعلى جبينها، فوجنتيها، فأنفها، فشفتيها فأطراف شعرها.

قال:

– جميلةٌ أنتِ، بشعركِ المبعثر هكذا على الوسادة.

وانسلّت أصابعه إلى جسدها.

تحسّسها من جانبيها، بدءًا بأعلى صدرها إلى خصرها، ففخذيها إلى ساقيها كمن يختلس لمس منحوتةٍ ثمينةٍ أذهلته كلّ العمر وكانت محرَّمة عليه.

شعرت ببعض الخجل. لحسن حظّها، كان الضوء خافتًا، فلم تودّ أن يرى علامات الحياة التي حزّزت بطنها وردفيها.

حملها بين ذراعيه إلى غرفة النوم. وضعها على السرير، وانساب فوقها برشاقة.

تلامَس جسداهما شبه العاريين، وتثاقلت الأنفاس من جديد.

قال بصوتٍ خافت:

– حلمتُ بهذه اللحظة ملايين المرّات. رسمتُ لها كلّ أنواع المشاهد وكلّ الكلام الممكن. والآن لم أعد أدري ماذا أقول.

ابتسمت. أحاطت وجهه بكفّيها بحنان صافٍ لم يسبق أن انتابها. قرّبته منها. وطبعت قبلة على شفتيه.

تابع:

– كنتُ أعتقد أنّ الأحلام لا تتحقّق، أنّ الأحلام هي ما هي، أمنيات فحسب، مجرّد أوهام. لكن يبدو أنّها تتحقّق فعلًا، قد تتأخّر، لكنّها تتحقّق. وها أنتِ، حُلْمي، أخيرًا بين أحضاني... إذا متُّ الليلة، فسأموت أسعد الناس.

أوثقت معانقته. أمطرها بالقبل في وجهها وكلِّ جزء من جسمها. اسْتشرَتِ الحماوة. أخذت تعضّ شفتيها كلّما رَكَنَ إلى مواضع لذّتها أو تعضّه في رقبته، في كتفه، في صدره، تشدّه بشعره وتغرز أظافرها في ظهره. تعمّد إثارتها: مرّر شفتيه ورأس لسانه حول صرّتها، انحدر إلى فرجها، عضّه برِفق فوق لباسها، ثمّ صعد إلى وسطها، فإلى نهديها، اعتصر نهدها الأيمن وامتصّ حلمتها برويّة، انتقل إلى الثانية ولا تزال يده تداعب الآخر.

أحسّت بشدّة انتصابه في تحرُّكه فوقها متنقّلًا بين حناياها. مدّت يدها لتمسك بعضوه من فوق لباسه التحتي، لكنّها تراجعت. أحسَّ بحيائها.

قال منقطع الأنفاس:

– أُحبّكِ... أحبّكِ بجنون!

أريدكِ بشدّة... بكلّ ما فيّ. قولي إنّك تريدينني أيضًا. أرجوكِ...

قالت لاهثة:

– لطالما فعلت. أريدك الآن وسأريدك حتى آخر نبض.

أطبق على شفتيها مُمسكًا رأسها من الخلف بيده اليسرى، نازعًا باليد الأخرى لباسها التحتي، فلباسه. وإذا به يلجها، وجنته

تلامس وجنتها واختلاجات روحه تنفذ همسًا إلى روحها. وهو، النافد الصبر في العادة، تروّى جدًا في مجامعتها. أراد لهذه اللحظة أن تبقى محفورةً في قلبه وذهنه إلى الأبد.

عَلَت تأوّهاتها وتعاظمت أنفاسه. تماوج في داخلها وتماوجت هي بين أرضٍ وسماء.

رفعت ساقيها إلى خصره، كبّلته بروحها وبكلّ أضلعها لئلّا يضيع منها مرّة أخرى. كان ولوجه هكذا أعمق، بعُمق توقِها إليه وكلِّ أوقات حرمانها، بعُمق أنوثتها المُترَعة، وشبق خيالاتها.

انصهرا عشقًا. ومع كلّ ولوج وخروج كان جسمها يرتعد ويرتدّ رأسها إلى خلف لفرط الإثارة.

وانتشيا، معًا، حتى خضّلَ نداهُ يباس جوفها، وأشبعَ ظمأ روحها الذي تفجّر دمعًا فَرِحًا.

* * *

لا تزال الأغنية تتكرّر، ودموعها حرّى ونارها مستعرة.

«سيتحقّق حلمك يا غدي. سيتحقّق»، قالتها وغفت.

17 تموز/يوليو 2016

استيقظتْ على شهقتها مُنقَطِعَةَ النَفَس. فتحت عينيها جَزِعةً واعتدلت لتُعيد الهواء إلى رئتيها. رفعت يدها إلى عنقها. أغمضت جفنيها بأسًى، وأسندت رأسها إلى ظهر السرير. تنهّدت حزنًا. تقوّست شفتاها في ارتعاشةٍ، فاضت كتلةٌ من نار في صدرها وانهمرت دموعُها.

مالت بوجعٍ إلى الوسادة، عانقتها وبكت. بكت وهي تئنّ وأعلى جسدها يرتعد لشدّة انتحابها. هدأت بعد دقائق. مسحت وجهها بخشونة بكلتا يديها. ودّتْ أن تقتلعه وتجد لها وجهًا آخر. قذفت بغطاء السرير عنها ونهضت بتثاقُلٍ مُنقّلةً قدميها بين كلّ ما كان قد تبعثر على الأرض. توجّهت إلى الحمام، ثمّ تراجعت خطوتين. استدارت يَمنةً ناحية المرآة. نظرت إلى انعكاسها، إلى عينيها المتورّمتين والخطوط السوداء التي انسالت على وجنتيها من بكاء اليوم وأمس الملطّخِ بالكحل. تسمّرت لمنظرها دقيقة، انبرت من ثمّ إلى الحمام، دفعت بابه بغضب وغسلت وجهها مرّتين بالماء البارد. هي لا تحبّ الماء البارد، لكنّها أرادت أن يلسعها بقسوته لتستردّ نفسها. أعدّت قهوتها وعادت بها إلى السرير. تحقّقت من هاتفها. لم يعلُ شاشته إخطارٌ برسالة كانت تأملها. تسارَعَ وقعُ أقدامٍ صغيرة

من آخر الرواق، اعتلت سريرها وارتمت في حضنها. عانقت ابنتيها التوأمين بشدّة وكأنّها لم ترهما منذ أيّام.

قالتا معًا ضاحكتين:

– ماما! أنت تؤلميننا!

ابتسمت لهما، وانهالت عليهما بالقُبَل.

سألتها إحداهما:

– ماما؟ أنتِ بخير؟

تردّدت لحظة قبل أن تجيب:

– نعم حبيبتي.

عجيبةٌ هي قدرة الأطفال على استشعار حقيقتنا مهما حاولنا إخفاءها.

استلقت بينهما، احتضنتهما وداعبت شعر كلٍّ منهما. كان تموّج شعرها ولون عينيها الغريب أكثر ما تمنّت أن تورّثه لهما، واستجابت لها الأكوان بولادتهما قبل ست سنوات.

رنّ هاتفها. كانت صديقتها لميا. ليس من عادتها أن تتّصل بها في هذا الوقت المبكر. لعلّها أرادت أن تطمئن عليها لأنّها غادرت سهرتها أمس على عَجَل. لم تُجبها. ستتّصل بها بعد أن تستعدّ لاصطحاب ابنتيها إلى قضاء اليوم في مكان ما.

نظرت إليهما وقالت:

– أتعدانني بشيء؟

هزّتا رأسيهما موافقتين.

– عندما تكبران، اتبعا قلبيكما مهما يكن.

سكتت الأولى وكأنّها تفكّر، وقالت الثانية باستعجال:

– لم أفهم شيئًا!

ردّت الأولى ببراءة:

– يعني أن نفعل ما نحبّه... ما يفرحنا فقط!

* * *

نهضت وهمّت بالاستعداد. وفيما هي ترتدي ملابسها، قرّرت أنّها ستأخذ بنصيحتها لابنتيها، فما جدوى النصائح إن أسديناها لغيرنا ولم نطبّقها بنفسنا؟

لقد طال أسر اللبوة في القفص وآن أوان تحرُّرها.

لم يعد لديها ما تخسره. فمن صانته لسنوات، تخلّى عنها بلا حسابات.

تناولت هاتفها. وجدت رسالة من لميا إلى جانب الاتّصال الفائت. لم تفتحها. أرادت أن تتّصل بغدي أولًا. أرادت أن تجيبه عن كلّ أسئلته. حسبه أربعٌ وعشرون سنة من الانتظار والتساؤل والعذاب. طلبت رقمه. ظهرت صورته. ابتسمت. كان الهاتف مغلقًا.

تابعت ارتداء ملابسها وأنهت تبرّجها.

حاولت مرّة أخرى. لا يزال مغلقًا. ربمّا كان نائمًا، فلم تعرف متى غادر أمس.

تناولت حقيبتها ومفاتيح سيّارتها، وفيما نادت على ابنتيها وتوجّهت إلى مدخل المنزل في انتظارهما للخروج، فتحت رسالة لميا:

«ورد... أجيبيني... حاولتُ الاتّصال بك لأخبرك بأمرٍ مهمّ».

قالت في نفسها: وأنا أيضًا لديّ ما أخبرك به، ستُصدمين يا لميا لمُستجدّات فريد الشهم.

اتّصلتْ بها:

– صباح الخير حبيبتي. ما الأمر؟

– ورد...

– لِمَ هذه النبرة؟ هل من مكروه أصابك، أو أصاب غمر؟

– لا... لا...

– ما الأمر إذن؟ أنتِ تُخيفينني!

– إنّه غدي...

– هل قال لك شيئًا عن أمس؟

– غدي مات يا ورد...

دارت بها الدنيا، وانهارت فاقدةً وعيها.

«أمّـا في متفرّقات هـذه النشرة، فحادث سيرٍ مـروّع ومأساوي أودى منتصف ليل أمس بحياة السيد غدي منعم، مالك شركة Infinity Co، قضى بنتيجته على الفور إثر اصطدامه بشاحنةِ نقلٍ انحرفت عن مسارها فارتطمت به رأسًا بقوّةٍ قاتلة، وقذفت بسيّارته إلى الوادي المتاخم للطريق. كان على الأرجح منشغلًا بهاتفه، كما جاء عن معاون سائق الشاحنة الـذي رأى انعكاس ضوء الشاشة الأزرق على وجهه قُبَيل الاصطدام».

صَدَقَ من قال إنّ الأحلام هي ما هي،
أمنيات فحسب، مجرّد أوهام.

ذَبُلَت ورد.

على مدى سنة كاملة، لم تقل من الكلام إلّا ما قلّ. اهتمّت بابنتيها فقط، وبشعرها. أبقت عليه طويلًا على الدوام، لأنّ غدي كان يحبّه هكذا.

محت فريد من حياتها، خفضت ساعات عملها، وَحَدّت من تخالطها الاجتماعي.

اشترت شاليه جبليًا وانتقلت إليه مع ابنتيها. صنعت بمساعدتهما بيتًا خشبيًا للعصافير، وضعته على الشرفة، وكانت تملأه يوميًا بالبذور.

وكانت، في السابع عشر من كلّ شهر، عند منتصف الليل، الساعة التي أعلنوا فيها وفاة غدي، تدير أغنيتهما وتبكي. تبتسم. تعانق نفسها. تتمايل. وتبكي، وتبتسم. كانت تخال أنّ نسمةَ دورانها هي روحه.

آمنت بأنّه لم يفارقها، فهي لم تَبُح له بعد بكلّ ما أراد سماعه، لم تقل له إنّه الحبّ الذي بحثت عنه كلّ حياتها وكان بين يديها

وأفلتته. إنّه وحده من أحبّها بلا قيدٍ أو شرط، وأعطاها روحه بلا مقابل. إنّه وحده من يستحق التفرّد بها قلبًا وروحًا وجسدًا.

لم تقل له إنّها هي أيضًا تحبّه بجنون.

خاتمة

هذه حالُنا نحن البشر، كالفراشات.

حَسبُنا رفّة جناح واحدة لتتغيّر مصائرنا.

هـذه حياتُنا، أطـوار أربـعة ترتسم في تكوّننا وانبعاثنا، في تحوّلاتنا، في اعتناق شرنقتنا، أو في فضّها والتحرّر منها.

إنّها حياةٌ تبدأ وتنتهي باختيارنا نور الشمس والانعتاق، أو نور المصباح والاحتراق.

ملاحظة

هذه الرواية، بإطارها الزمني وشخصيّاتها وأسمائهم وعلاقاتهم وتفاصيلها، لا تمتّ بصلة إلى حياة أيّ أشخاص مُعيّنين، وإن كانت مُجرياتها مُستوحاة من الواقع.

إنّ الأقوال الممهِّدة لكلّ فصل من فصول الرواية هي من تأليف الكاتبة، أما تلك المُقتبسة، فقد ذُيّلت باسم كاتبها أو مصدرها.

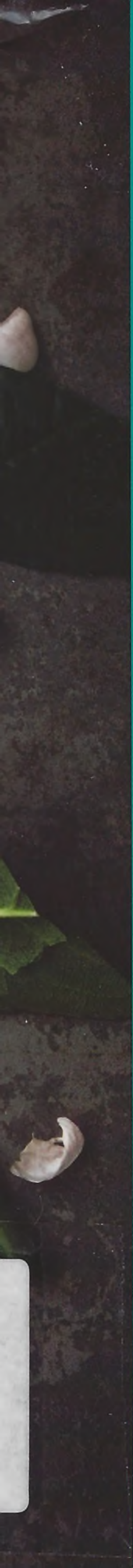
النكات والأقوال المأثورة الواردة في الصفحتين 45 و54، والمشار إليها برمز النجمة مأخوذة من مصادر عامّة ومفتوحة.

أشكر

أمّي وأبي على الحبّ والدعم المتدفّقَين أبدًا.

كلّ الوجوه الغريبة التي صادفتُ والتي أَلْهَمَ تعبير ملامحها، ولغة عيونها، ما في طيّات هذه الرواية.

ناشري، بشخص مالكه ومديره العام، وفريق عمله ومديري أقسامه، على احترافهم وعلى ثقتهم بي وتقبُّل جرأتي في قول ما يجول في أعماق كثيرين، لكنّهم لا يبوحون به.



عطر الشوك — هنّ نساء يخضن يوميًّا حروبًا صامتة من أجل البقاء. يدفعن من لحمهنّ الحيّ ثمن موروث ثقيلٍ من القيم الاجتماعية المزعومة، ويسدّدن من أعمارهنّ فواتير منظومةٍ بُنيَت على أنقاض وجودهنّ.

هم أزواجٌ يحقّقون عليهنّ شبه انتصاراتٍ في مبارزات غير متكافئة، نتائجها معروفة سلفًا، متسلّحين بالمنظومة ذاتها التي تمنحهم بخبثٍ ثقة اليد العليا والموقع المتقدّم على خصمٍ مُعَدٍّ سلفًا لآليّة التدمير الذاتي...

إنّها رواية... لا بل إنّها اقتحامٌ مباشر للأبواب الموصَدة، تجريدٌ مؤلم للأقنعة، تمرّدٌ صارخ على الأعراف البالية، اعترافٌ جريء بحقيقة غير معترف بها.

إنّها مجتمعٌ موثَّق ما بين دفّتي كتاب، بلا تشفير أو خَفَر أو خوف. أحداثٌ من نسيج مجتمعنا الحاليّ، والتشابه بين شخصيّاتها وأشخاص في الواقع ليس محض مصادفة، بل هو مقصود ومطلوب. فاقتضى التنويه.



رنا الصيفي — كاتبة لبنانية تعمل في مجال الترجمة والتنقيح وكتابة الإعلانات الإبداعية. ترجمت ما يفوق 14 كتابًا أدبيًّا، من بينها تسعة للروائي البرازيلي باولو كويلو. «عطر الشوك» هي عملها الأدبي الأوّل.

ISBN 978-614-469-751-1
9 786144 697511

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان